كازا

أحلام الأحمدي

كازا

رواية

دار خيال للنشر والترجمة ©

تجزئة 53 قطعة. رقم 27. بليمور

برج بوعريريج – الجزائر–

0668779826

Khayaleditions@gmail.com

ردمك : 978-9931-738-71-8

الإيداع القانوني : السداسي الثاني 2019.

إهداء..

العالم الذي صنعته لي..
بدأ بصوتك الرخيم يا أبي..
حكاياتك العجيبة والمدهشة...
خلقت داخلي حروفا أعجب...
صور الظلال التي شكلتها يداك لي...
وعلى ضوء الشمعة الخافت...
قد تركت صورا لن يراها غيري ..
أهديك يا عزيزي كل ما أكتبه...
فأنت من شكلتها...
داخل روحي...

إلى والدي وعزيزي.. أحمد قاسمية.

السطور التي تخلق صورا لا بد أنها تملك روحا، والأحداث المدججة بالحقيقة التي لن يستطيع تقليد بطلها أحد، لا بد أنها أسطورة ونبوءة محققة...

ما التاريخ سوى وطن سماوي، سكانه الراحلون أحياء ووقائعه الماضية محكومة أن تسكننا مجددا، فالبشر يسطرون التاريخ، والتاريخ يؤرخ العظماء...

أحلام الأحمدي

مقدمة

قلمي مذهول.. !

عجبا لهذه القصص العظيمة التي لا يشبهها شيء! ..تتكشف ألغازها واحدا تلو الآخر، وما يكفيها القلم ولا الحروف ولا حتى المشاعر!...فسلطانها أخاذ وقوي وساحر وكالخيال.. كالخيال الذي يجعلك تسرح فيه مبهورا كأن بك خمرة...

لقد شدني هذا البطل، كجاذبية خارقة، حاولت أن أخرج من هالتها وما استطعت، فقوة الإنسان هذا عظيمة على بساطتي وشديدة على خيالي..

قصته تحكي عن عبقرية الوطني، عندما تختلج أحداثها مع النفس الطموحة، المحلقة نحو عالم عال ودرجات سلالمه وأبراجه نحو سماء بطلة. ومخلصة....وصافية. إنها الثورة التي انتصرت على الجبروت والظلم ...

وقائعها الحقيقية لم تكن تلك الرحلة للمريخ ولا القمر، بل كانت رحلة لأبعاد من بقايا الزمان والمكان..والتي تصنع روحا باهظة الثمن...تدفع أضاحيها من الحياة والموت.

الجزائر حبلى...ولود...نفاسها لا يتوقف.... مواليدها كثر.. وكثر.

وأبطالها لا يعدون... أساطيرها خامدة في قلوبهم حتى تستيقظ كالتنانين...ولربما كانت مخلوقات لا تشبهها أي ميثولوجيا، أي تحديد، وأي حقيقة ...وأي خيال أيضا....

أسطورة مستر هاري حقيقية يا سادة !

تفاصيلها القدرية العجيبة تكتب كل مرة، تنحت على أوراق متعاقبة ..مسترسلة ولكنها من وحي الحقيقة نفسها...الحقيقة التي تفننت فيه ...وبهرجته كذات الخيال نفسه...ليرد صنيعها فنحتها هو بدقة العبقري والمختلف والعظيم..

رجل لم يكرر لحد الآن..!

ولربما هو نبوءة تتكرر كلما تمثلت ثورة كثورة الجزائر فالعظمة لا تولد إلا بأولادها العظماء..

هذا القلم يكتب الإنسان عندما يكون ثراؤه الخالد عبقرية ...وروح عملاقة لا تزول بزوال الأجساد..

سانت أنرو..

ربيع 1936

الطفل الذي يبكي، طفل ككل الأطفال، أما الذي يفكر ويترك العالم كله مقسما بدقة في مرافئ عقله، ويرسم لوحات حسابية، من أرقام الزمن وتواريخ المكان ..فذاك طفل من عالم الإنسان الحقيقي، صبي خارق للمجد، متواضع لقمم الشموخ، عقله لا يشترى بمفاتن الدنيا وشهواتها، ليصبح العقل الزاهد في سن أغلبنا كان فيه، يرتع ويلعب ويساق ببعض الحلوى..

سانت آرنو عام 1936، كانت تلك المدينة التعيسة، التي يسكنها الفقر والفقراء، حيث صنع المحتل فيها حصارا يهمش الحياة والرغبة فيها، ويقيد الطامحين بأغلال، كانت تظنها باريس الوسيلة المثلى كي تجعل من هؤلاء البؤساء، يطأطئون رؤوسهم ويقزمون هاماتهم، ويرمون الجزائر من أذهانهم لتختفي بين لقمة العيش والبحث عن رغيف الخبز، فخسئ ظنها وبهتت. لم تدرك تلك العفريتة فرنسا، أن البسطاء فيها رغم كل محنهم وعجزهم وحاجتهم يحلمون ليلا ونهارا، بوطن حر وعلم يرفرف لا تسكنه ألوان فرنسية ولا تعاليم باريس وقوانينها السليطة على أحلام كل جزائري.

السقف القرميدي المخرم، بتلك التشققات والفتحات الصغيرة بفعل الزمن والفصول المتعاقبة عليها، تنسل منها أشعة الشمس التي تكسرت خطوطها، لتعلن بها بدايات الربيع الأولى، فبعد تلك الليلة المثلجة والعاصفة، انطلق وهج الصباح يحمل معه سماء ربيعية شديدة الزرقة والصفاء، ولكنها خادعة فقد سكنها صقيع "ستارنو" ليبث برده على تلك الجدران الرقيقة، المختلطة بالتراب والحصى.

هناك...

كان يعيش طفل صغير في العاشرة، ينظر من فراشه الذي يلتصق كل إخوته وراءه معه يحتمون من زخات البرد، تحت لحاف من الصوف الملون والذي نسجته نوارة بنفسها، وهو يرتعش من البرد..رغم بعض النشارة والخشب المشتعل كان يزج بنظره نحو زجاج النافذة الشفاف والذي كساه ضباب خفيف ...تمعن وتدبر حالة روحه المقيدة وبصوت عال قال:

-هل يمكن أن أملك سقفا أجمل يا يما؟ سقف يبنيه المحررون، حيث الأنامل الثائرة التي لا تحدها الحدود؟ ولا يخرمها ظلم الفقر؟ ولا ظلم فرنسا؟.

هل يمكن أن أستمتع بهذا السقف المتشقق والبيت البارد؟ ..وأشم رائحة حليبك وقهوتك السوداء، لكن في وطن حر؟ هل يمكن؟

نظرت إليه والدته، تمعنت في وجه طفلها، فكانت نظراتها المشفقة عليه، من عمر أكبر من عدد سنواته العشر، وقد حزنت...أو قد أصابها فرح يخالطه الخوف... ثم خبأت نظراتها بسرعة وأجفلت.

كانت نوارة أما قوية وصلبة، جلدة وصبورة، فالنساء في هذا الوطن، قد تحررن من نكهة فرنسا، وزال طعمها بين كلماتهن وعواطفهن، وبين فينة وفينة تتحولن لمقاتلات شرسات، رحن يحرضن على البطولة في قلوب أطفالهن، فلا خوف على المقهورين، مادام لا فرق بين الحياة و الموت، على أرض يسحقهم الظلم والفقر والمذلة فيها، فلا فرق بين البيت والقبر، كلاهما في عيونهن كانا السواء.

الوطن والأطفال! لا جدال في هذا الجزء، موضوع في كبد عميقة...عميقة ومستترة، يحضنها بسور من العظام والتعظيم، شيئان مقدسان يدفعن حياتهن عليهما دون تفكير..

غمغمت وتكلمت دون أن تنظر إليه، جردت ملامحها من الحنان، لترد بقسوة، كانت تظن أنها تستطيع بها وبذاك الحزم، أن

تردع عبقرية غاضبة، أن تحجب عليه ذلك التنين الذي يسكن كازا ويعيش داخل روحه، ودت لو أنه كان طفلا بسيطا، يدرس ويرجع ليسأل عن الغداء، لا قوة تحيطها بالخوف على جسده الرهيف. إنها الأم التي تسكن قلبها عاطفة لا تبلى ولا تنضب..

تراها... تعلم طفلها البطولة، وتحن وتخاف عليه من البطولة ذاتها مرة أخرى، خاطبته تستعجله:

-قم ..قم اغسل وجهك فقريبا ستذهب إلى العمل، المقهى فتحها والدك الآن وأنت لا زلت تحلم وعيناك مفتوحتان ..

"ستارنو" هي مدينة "العلمة" الآن، في ذاك الوقت سميت باسم السفاح "سانت أرنو" كانت تحت وطأة من الجبروت الملتحف بالصمت والقهر والفقر، ذاك الوقت أيضا، كانت الظروف صعبة تمر على الجميع، رغم الغليان الذي يمكث على الجمر، يطبخ أشياء كثيرة ستسفر به، عن شخصيات وأسرار وأحداث شتى..

الطفل الذي كان يتكلم عن سقف بيته المتشقق... طفل مختلف، لا يستطيع أن يفهم عبقرية سلوكه أحد، وهل يحدث أن للمختلفين شخصيات تفهم؟ بل ..هل كانوا أطفالا بسطاء التفكير والسلوك؟

مسعود زغار، هذا الطفل ذو العشر سنين، كان صغيرا يصارع عالما كبيرا داخله، فالحرية تتكاثف أشكالها عمق روحه، أما عقله فيترجم صورها للجنة المثلى، لا يفقه هذا إلا أسير .. إلا مظلوم، إلا شعب سكانه محاصرون بأسيجة المستدمر العنيد..

حتى العصفور السجين، والذي جناحاه منكسران دائما ونحن لا نراها، لا نفقه ألمه وهو يتأوه، بل نظنه يزقزق فرحا، فهل يستوي السجين والسجان؟ والظالم والمظلوم؟ والقاهر والمقهور؟ والأعمى والبصير؟

شتان..شتان. فالثورة تتمخض في ذلك الرحم، وتلك الكينونة الصامتة، والعلقة ستصير مضغة بعد حين قريب من الزمن..

وكازا أقصد الطفل مسعود، أصبح ملحمة من الذكاء، لا يصعب على هذه الأرض البطلة والفاتنة، أن يخلق عليها هؤلاء، أحيانا الطفرة تكون نبوءة، لا تتكرر الأشياء الخارقة كل حين.

ذاك الصباح كان مختلفا قليلا، الأحد يجتمع في قهوة والده بوزيدي، الفرنسيون الذين يتأهبون للسفر، الذين يتجهون إلى أوطانهم سعداء، ويتركوننا بكاة على أوطاننا نحن، واليوم يوم عطلة من الدراسة، شغف المغامرة محقق في وجدانه لا ريب،

وهجها يسوق كازا بسحر وميضه الفتان، حيث تطلقه شمس باردة بل مختبئة في قلبه، ولبه يبحر متجها نحو البحر.

ماذا سيكون ووراءه يا ترى ؟

هكذا يتكلم في سريرته، ومنطقها المتذاكي، يحلق به كنسر ويغوص به كحوت عملاق..

كان يعمل قبل أن يذهب إلى المدرسة، يلبس حذاءه الذي تظهر منه أصابعه، فيحاول كل مرة ترقيعه وإخفاء عيبه، شيء من القتال كان فيه، بل كان مخلوقا داخله لا ريب، لقد خلقت أجساد الأبطال للكفاح.

هم ...لا تترجم عقولهم مجال العمر...ونعومة الأظافر...ودفء الفراش...هم مخلوقون للتنقل لا للسكون، والعقل أيضا ينافس منطقه الصواب والخيال، بل يتعداه...يتعداه بعيدا نحو الفجر المقدس وإلى بعد ممنهج بقدرة الإله، أما نحن سنبقى فلاسفة صغارا، في منطق الأبطال..

كان قد سكن قليلا وهو راجع إلى منزله، راح يتمتم بين نفسه، ضجرا متخما بأسئلة كثيرة وصعبة.. المعلم فرنسي! الدرس بالفرنسية! وهذا الوطن إنه لا ينتمي لهم في شيء، أنا جزائري...الجزائر تضخ في قلبي الدم، والدم العربي يحييني فما الذي يفعله هؤلاء هنا؟ من هم؟ أريد أن أرى من اقتحموا

أرضي بأم عيني، أريد أن أحس بجبروت مكانهم، أزمانهم أركانهم..

أريد أن أفهم وأعرف هذه الفرنسا؟ أن ألمس قهرها بيدي وأمحقه بين أصابعي.

لا يصعب شيء أمامه، وطريقه الذي يرسمه لا يتعرج، وإن تعرج على الأرض فسيحلق في السماء بعيدا، حيث السبل.. هي طريق يعرفه كالنسور. عشر سنوات كان عمر كازا ومئة عام كان عمر عقله..

وبين الكثير من التدبر في هذه الأحوال، قرر..لقد اتخذ قراره حازما، سأسافر..سأمضي لأرى هاته الكينونة المستبدة، لا عدو مغلوب، إن كان مجهولا وبعيدا عن اللمس.. عن القرب، لا عدو مغلوب إن لم نمسك قلبه ونتحسسه بين أناملنا، ونفتش في عقله عن خبايا الظلام..

دخل منزله مساء.. وضع حقيبته، ومساءات الربيع لا تمكث مطولا، بداياته لا زالت متمسكة بنواميس الشتاء، السقف يقطر عبر التشققات من ذوبان ثلج البارحة، وأمه تخبز المطلوع للعشاء...خبز تشفي رائحته الزكية ذكريات آفلة .

قبَّلها وجلس جانب الطجين يتدفأ، أكل قطعة من الكسرة الساخنة، وكغير عادته كان ثابتا لا يهازحها، حدقت في عينيه،

عرفت بحدس الأم أن كازا قد قرر شيئا، سكونه وسرحانه ليسَا من عادات ولدها، لقد كان يفكر في شيء ما، مثبتا نظراته على يدي والدته التي تحرك خبز المطلوع على الطاجين، وصمته الذي لا يسرها كان غير مألوف لنوارة، ابتسمت ابتسامة غامضة، مختلطة بين مشاعر الخوف والفرح، غموض مفهوم لوالدة تعرف ابنها تارة وقد لا تعرفه تارة أخرى، فهو كتوم، أسراره ثورة طاحنة بصمت، وإذا أدلت بدلوها، فسيكون قرارا نهائيا. وفاجأها..

-يما ..سأسافر إلى فرنسا.. لقد قررت.

توقفت عن تحريك كسرتها وحدقت في عينيه مذهولة فعرفت أنه لا نقاش، انتهى الموضوع، ذو العشر سنين راحل هناك..

-كيف ترحل؟ تترك دراستك وقهوة والدك وتسافر؟ لا زلت طفلا أيها الرجل..

كلمات نطقتها وتعلم جيدا أن لا أثر فيها، على عقل كبير لهذا الطفل..فثلاث كلمات منه قد أنهى بها الموضوع:

-لا تخافي ابنك رجل..

مغامرة إلى فرنسا...

تخيلوا أننا قد حفرنا للمحيط قناة.. ليتصبب منه نهر عظيم! فكيف لأمواجه أن تسري في ذاك الزحام؟! كيف للججه المتلاطمة أن تهدأ وتتريث؟! لا سلطان عليها إلا قدرة إلهية، وقدر من صنيعة الرب وحده، فنحن بسطاء عنيدون، نفتخر بصعود جبل كان باسطا شموخه منذ مليون عام أو يزيد، نفخر بسلطان الدنيا الذي لا نتحكم فيه، إلا بإذن الله القدير..

مسعود تحدى كل شيء، تحدى سنه الصغير، الذي لا يتجاوز الحادية عشرة، تحدى السفر دون مؤونة، دون مال ووثائق، ودون أي شيء، غير لباسه الرث الذي كان عليه، والذي لا يمتلك شيئا آخر غيره.

ترك ستارنو وراءه، ترك والده بوزيدي في المقهى وحيدا، فحرمه وجرده من كل شيء..

كان يظن ولده ذلك الطفل الحالم والمتهور، والذي يسكنه بل يتلبسه خياله المجنون، تكلم غاضبا:

-اذهب سترجع من منتصف الطريق يا مسعود، لن تنال مني شيئا، عسى أن يرجع لك عقلك المسلوب، أي سفر تتكلم عنه ولا زال حليب نوارة بين أسنانك؟..!

ولكن كازا، ترك الجميع يلهث وراء أمنياتهم بالتشفي في رؤاه، وحمل شغفا محموما بالقهر، وعقلا هادرا، لم تسع ثقل وزنه ستارنو بأكملها.

وبعد رحلة كانت قد اكتملت أخيرا، وصل إلى العاصمة دون حمولة للسفر، بل كان يحمل أثقالا أخرى من الأفكار، مواجها قدره بكل شجاعة ومهما خبأ في دفاتره، نزل العاصمة وقد كان لأول مرة يراها، ياسمينة بيضاء بل مرمرة كريمة في يد سارقة ولصة، تحرك بخطواته الصغيرة المعملقة، نحو البحر لم يثره شيء هناك، كان هدفه عدو يقبع وراء هذا..هناك هناك وراء البحر... أمام هذا الشاطئ..وهذا الأبيض المتوسط ...تسكن الشياطين أو الملائكة.

كان البحر جميلا وشاسعا، لا يشبه التراب ولا الصخر ولا القرميد! لا يشبه كل ستارنو..جميل كأن هذا الشاطئ حد نحو عالم آخر ، أخذ لبه فهدأ يفكر، ليقاطعه الجوع وقد مزق سكونه، لم يتناول شيئا منذ البارحة، اشتاق للتو لمطلوع نوارة الساخن، لنظرتها الحانية والتي تتستر عليها لكي يسكن ولو لبرهة..

ولكنه سرح بعيدا ابن العاشرة هذا، وخفتت ثورته المتوسطة حدود عقله العظيم، وتداخلت قدرة البحر لجذب الكدر مع سرحانه، صوت الموج كصوت عروس سعيدة تغني، كصوت

قيثارة عذبة، تريدنا أن نبعث من جديد، كان كذلك يسرح في مشاعر فاتنة حتى...

زين البحر حبيبين، قبلة وراء الأخرى.. لمسة شعر.. حضن سريع ولولا الزمن وتقديره وحساباته، لقلنا أنه الخلود بذاته، ولكن عقل كازا كان مختلفا، تتركب الصور في لبه كجزء من الثانية، فصورة العاشقين كانت عبارة، عن حقيبة صغيرة. خاتمين في أيسر كل واحد منهما.. وله وعشق في عيون زوج مفتون..ليس هذا لغزا، بالنسبة لكازا إنه الحل بذاته..

تبعهما.. دون إدراك منهما، حيث الفندق بجانب المرفأ، مقهى جميل أسفله، دخله مسعود وقبلها قد دخل لقلب صاحب المقهى، روح خفيفة يمتلكها ونكتة مضحكة، و عمل دون مقابل ومباشرة دون طلب من صاحب المقهى، راح يمسح الطاولات، يوزع فطور الصباح بخفة مبهجة، حتى صاد قلب كل أحد، فوزع البقشيش عليه بسخاء، ما القلب سوى سلطان للمزاج والكرم! وخلطته السحرية لاستهواء الأفئدة شيء خلق معه، موهبة أخاذة تليق بهذا العبقري الصغير، والذي كان طموحه يشد ذاته نحو ذلك المرفأ ...هناك.. وصوت الفضول يحرر عقله فيحلم ويأمل..

تناول بيضة مسلوقة وقطعة خبز صغيرة، وانتظر العاشقان، ركز ببصره وبصيرته على باب الفندق، لقد كان الحبيبان فرنسيين، سيرحلان هذه الليلة لباريس، هكذا قيل له، بعد أن سأل عنهما صديقه "حمو" فأخبره عنهما حتى نزلا، راقب خطوات الزوجة الأخيرة على هذا المرفأ حيث الدكاكين المصطفة، وقد كانت تفتش عن شال مزهر كوجهها الجميل، أما زوجها فقد كان يمسك يدها بيده، كأنه يثبتها على هذه الأرض كي لا تعلو أو تطير، ثم نظر لساعته وكلمها بضع كلمات وقد قبلها وانصرف راجعا للفندق كأنه قد نسي شيئا.

وفجأة حسب بقشيشه، كانت فرنكات تفي بالغرض، بقشيش سيدفعه كله ليغامر به، الجوع عند كازا، هو السكون في أرض واحدة، والجلوس لانتظار الفرص أو القدر...هراء! الفرص نصنعها نحن لتصنعنا هي..

لاحت من عيني تلك الفرنسية الجميلة نظرة رضا، الشال المختار كان أسودا تزينه ورود ياسمين كبيرة ملونة بالأحمر، وفجأة نظر مسعود للبائع بعينيه الحادة، أشار له أن ثمنه سيدفعه هو، أراه الفرنكات الورقية بيده حيث كان يقف متحينا فرصته، فابتسم البائع للفرنسية وأخبرها أن ثمن الشال مدفوع..

احتارت في البداية ظنت أن زوجها من فعل ذلك، ولكن البائع أشار بسبابته إلى كازا:

-ذاك هو سيدتي من دفع لك ثمن شالك، إنه ذاك الطفل..

ازدادت حيرتها، تمعنت في تفاصيله من رأسه إلى أخمص قدميه، طفل نحيف ذو شعر مجعد وغير مرتب، بدت لقطته أكبر من عمره..

شكرت البائع وحملت شالها الأسود، واتجهت نحو كازا، لمست شعره برقة وابتسمت:

-مرحبا، هل أنت من دفع ثمن الشال؟

-أجل سيدتي، كان يبدو جميلا عليك لهذا أحببت فعل هذا..

عاودت الابتسام بحنو، واستدارت للذهاب بعد أن شكرته، فتشردت الأفكار بسرعة في رأس كازا، هل انتهى الأمر؟ حدسه أنبأه أنها سترد الجميل، وستكون يدا تفتح له باب البحر الصعب عليه، ليرى العفريتة فرنسا بأم عينيه، تسلل لباطنه الشك وسرعان ما تفتت وانحل أمام تقدير وهبه الله لعقول بعض البشر..لقد توقفت ثم استدارت إليه وقالت:

-تعال أريد أن يراك زوجي..

ابتسم الطفل الكبير، وهرول نحوها، كما سبقته أمانيه للرحيل إلى فرنسا الجبارة، فأحلامه جبارة أكثر منها..

تأمله حبيبها، كانت وهي تحكي له عن كازا، يدرك أن وراء الصغير شيء، فالطموح البادي في عينيه مشرق بشكل بديع، حتى أنه يعم تلك التقاسيم المليئة بالبسمة والبساطة، اقترب منه وبلطف غامر سأله:

-هل يمكنني أن أسألك شيئا شريطة أن تكون صريحا معي؟

وبكل وثوق أجابه:

-نعم يا سيدي تفضل.

-لم فعلت هذا؟ أريد أن تفتح لي قلبك ولا أريد أكثر..

-أريد الذهاب إلى حيث تذهب..

-هل تقصد فرنسا؟!

-أجل..

رحل كازا كما أراد، وتحققت رغبته كما خطط لها، فكانت تلك أول خطة له، وضعها ورتب خطواتها وقواعدها لتنجح بالضبط كما رسمها هو، سافر مسعود ابن العاشرة على متن الباخرة نحو باريس، يحاول استكشاف من جاءوا لوطنه عنوة، وجردوا شعبه من حرية سلبت بالقهر والقوة والسلاح .

البرلينغو..

الزمن ماء منساب، لن نمسكه ولن نطوله ما دام يتحرك هاربا من بين أساريرنا، بل تتحول كل ثوانيه لتجاعيد على هذه الوجوه والقسمات فنشيخ ونهرم، ومهما فعلنا ...ومهما دفعنا فإنه راحل ولا يعود..

عاد كازا من فرنسا، لم يقض الكثير هناك، كان قد انتهى من استكشاف العالم الوحيد الذي يكرهه، ذهب إلى جهنم بقدمه، ليعرف شر حرها وقرها، أسرته شجاعته وقادته إلى عقر دار العفريتة نفسها، فلسفته مواجهة كل شيء، لأن كل شيء في نظره سيكون قويا إن لم نلمس كياناته المخيفة.

رجع وقد تغير، وعرف يقينا شكل عدوه، استطعم طعامه وعرف تربته وبحره وشم هواءه، لا شيء كان يجعل باريس قوية، سوى سخاء ظلمها والظلم قوة تستمد من الجبناء.

عاش يرى ويسمع ويحس ويعمل، ولكنه لم يستسغ الحياة، وتلبد قلبه برماد العنصرية الفرنسية المقيتة، فلم يطق العيش هناك وطنهم المحرر لا زالوا يحتلون فيه أقدامنا عليه، نفس المرارة ولكنها أثقل دون أصحاب وأهل، الغربة تضاعف القضبان، وتزيد الصقيع، وترسل حنينا مغموسا بالمرض

والوهن...الفرنسيون يعيشون حرية على أرضهم يحرمونها علينا، بل كانوا يتمتعون بثرواتنا هؤلاء السارقون.

طيلة مكوثه هناك كان قد حصل بعض الفرنكات القليلة، والتي يستطيع جمعها بين يديه، كان لا يعبأ بها، بل لم تثره ولم يستسغها أيضا، ما كان داخله إلا الشوق ..والذي كان كله لنوارة، والنوارة كان شغلها الوحيد طفلها، كانت تبحث له سرا، عن حل لثورة هذا الرجل الصغير، لخطة محكمة تجعل وليدها هادئا من قصصه، والتي كانت تبدو لها مجنونة وغير مفهومة...

لقد جلب لها بعضا من الفرنكات، وهي قد جلبت له تلك العروس...أجل ستزوج طفلها عساه يخمد، ويصبح مشغولا بجميلة ما...

زوجوه وهو في لحن آخر، يعزف عزفا مختلفا، بل كان عقله ينتمي لعالم غير مواز، أما هي ..أقصد العروس السيدة فاطمة جرمون كانت في تلك اللحظة قد أصبحت من عائلة زغار وحرم مسعود، وفي لحظة أخرى أيضا أصبح وهولا يتجاوز سن الثالث عشرة، زوجا لا يحفل بأشياء فاطمة، عواطفه وعقله مليء بتوازنات العمل والسياسة والحرب والأرض، فأي زوجة يا نوارة ستضاهي طموحات مراهقك الصغير؟

لا امرأة تذهله الآن، الجنس شهوة طفيفة أمام شهوة الوطن والمغامرة، بريء هو...بريء من تخطيط عالم النساء، رهيب في تخطيط عالم المال والسياسة والتجارة، كان جل اكتراثه متقوقعا في عقله لا قلبه، وكل اندماجه كان مع الأحداث المتراكمة فوق قاعدة البركان، والحرب تقرع طبولها وستنفث قريبا حممها..

حاولت العروس فاطمة الاندماج، عدم الاكتراث وتجاهل عالمه وربما فهمه...فزاد هذا من تعقيد صورته لديها.

المرأة جدول من الحب، تجففه حرارة الصحاري القاحلة، المرأة تفاحة شهية، ستيبس عندما تنبذ..

فثارت هي الأخرى...ورحلت رجعت كئيبة ومهزوزة وتعيسة لبيت أهلها، فلا حب دون حب ولا حياة دون حياة..

تطلقا...قررا الاثنان مقتنعين بالرحيل، كانت فاطمة مفطورة الفؤاد، وكان كازا مهموما بانطلاقه نحو شهوته القصوى، نحو ذاته التي يراها طريقه..

البرلينغو، حلوى بدأ بها هذا الطفل الكبير، فلقد كان في داخله ذلك الجزء الطفولي، كان شعورا منحوتا عميقا داخل مكامنه، زمن منسي يلعب فيه كأترابه بكرته ويعشق لعق الحلوى، كما نحن... لا زلنا جميعا في غفلة من كل هذا العالم الصاخب، وكل هؤلاء البشر، ننزوي لزاوية داخل الحنين،

ونستذكر تلك الطفولة حيث نحن، حيث البراءة في أعماقنا ودواخلنا، حتى لو كانت طفولة قاسية فالأحلام لا تأفل ولا تنضب...

ونمت تجارة الحلوى، وبعد دكانه الذي أسماه برلينغو وفليو، ومن حانوت صغير في ستارنو كان قد قسمه لقسمين، إلى فرع في مدينة وهران وغيره بعد ذلك، استطاعت عبقرية هذا الفتى الدخول إلى قلوب الجنود.، وبالضبط إلى جنود الحلفاء الذين نزلوا أثناء الحرب العالمية الثانية على أرض الجزائر وعلى ستارنو، وقد نمت تصوراته..مداركه.. عقليته.. تفكيره ...تخطيطه، ولم يمض وقت قصير عليه حتى تعلم الانجليزية وأتقنها بخفة وسرعة...كان يعمل دون شيء من الراحة، أما السبيل الذي انتهجه كان هو الوطن والوطن كان كل قلبه ...

شغلت قضية الجزائر نفسه، وبدأت تكبر داخله حتى اكتسحته.. فالعشق هناك... والحرية محيط لا ينتهي، لا فرح خارج جزائريته، لا وطن غير جزائره...

حلوى البرلينغو ليست تجارة وانتهى الأمر، والظاهر غير الباطن والعمق بكثير، البرلينغو خطة للدخول بين الجنود، وأخذ عالمهم نحو تصورات وتحليلات كازا، خلط رهيب للمال والسياسة والجوسسة لا يتقنها كل التجار والباعة، نخبة تعد على

الأصابع وعلى كل هذه الأرض، لا تكرر إلا في نبوءات الإنسان المختلف والغريب عن بشر يتاجرون بالمال والذمم..

تلك الحلوى رتبت لكازا طريقا مسطورا، لا يشبهه أي خيال ولا حقيقة .

البرلينغو علمه كيف يبرم الصفقات، كيف يجد الحلول بلمح البصر، كيف تكون الطرفة والحنكة خلطة لحصد الفرنك والقلب أيضا ، أتقن بشكل مبدع كل شيء، وبعد زمن بدأ ينجذب لكل بؤرة للكفاح ..الكشافة، حزب الشعب ..النضال السياسي السري ..كان لا يتأخر ولا يتوانى..لا تتجاوزه أشكال الكفاح مهما بلغت خطورتها، لقد كان يعزف مع الرعد وبصدره المكشوف، لا يعرف الخوف، والخوف لا يعرفه.

نزول الحلفاء على أرض سطيف وبالضبط في ستارنو، فتح عيني كازا على عملاق سيحلق قريبا فوق كل العالم، بعد أن اعتكف هذا التنين بعيدا عن الأحداث والسياسات الخارجية ها قد عادت مجددا، إنها الولايات المتحدة الأمريكية الدولة النووية المتحالفة مع دول الحلفاء، في حرب ودع فيها البشر السلام والإنسانية على قبور لا يعرف فيها المنهزم والمنتصر، أو أي الموتى منهم يسكنونها.

جنود الولايات المتحدة الأمريكية، فسحة ومغامرة لفضول العبقري والمراهق مسعود، ست عشرة سنة، في ذاك الوقت عمر كفيل بالاندماج مع هؤلاء الغرباء القادمين من وراء البحر والمحيط، كانت الأشياء القادمة معهم مختلفة، يحملون مؤونة وحاجيات من القارة الجديدة، وبسحره وروحه الدافئة، اندمج بينهم بأسلوب السهل الممتنع، اشترى أشياءهم الغريبة والجديدة، وبادلهم بفرنكات فرنسية وحتى حلوى البرلينغو والفليو..طعمها النعناعي اللاذع والمنعش أثار ولع الجنود..كانوا ينتظرون بشغف هذا التاجر المدهش...

العلاقة المختلفة التي نسجها دهاء مسعود، مع الجنود الأمريكان، جعلت من البوليس الفرنسي لا يهتدي لسبيل نمطه المتفرد، تتبعه في كل مكان وما سيطروا عليه، ولا استطاعوا إمساك زلة تقطع الشك باليقين، فقد كان يختفي كلما ظنوا أنهم وجدوه، تحول ظل كازا لشبح لا تمسكه إلا الأحلام والأمنيات..

وبقدر الخبرة، بقدر الموهبة الخلاقة، تقدير لا يمكن لغير المختارين، أن تستلبسهم عبقرية مختلفة وجذابة، كم من المال يغري العقل؟ فيصيبه بالبلادة والتكبر والغرور؟ كم من نفوذ تفتح أبوابا نحو السماء! تصيب الروح بالكبر والحماقة؟

فتنة المال والنفوذ مهلكة ونهايتها قبر مظلم ولعنة من أوجاع الفقراء والمساكين، تنخر عظام البلهاء والمغرورين بل الذين كانوا ذوي قوة ونفوذ..

أما كازا فقد كان المال لديه لعبة شطرنج، محسوبة حركت بيادقه لحماية الملك وحده، والملك كان الوطن بذاته وبكل تفرده وجلاله، لم تنجح الثورة جزافا، لم تنجح منة من فرنسا، الثورة صنعها رجال ونساء آمنوا بفوقية الأرض والحرية، وتجردوا من شهواتهم لرؤية الوطن حرا رافعا رأسه كما ترفع الجبال قممها..

كازا... كل يوم يمضي عليه ، كان ينمو فيه شيء ، الكفاح يرسم الطريق الوحيد والخطر، والعمل كانت تجارة ملفوفة بحذر ومنطقية على السياسة والمعلومة، ووجهه الصبوح روحه المرحة لم تشفع له فزج في السجن وغياهبه، في أحداث سطيف الثامن من ماي من عام 1945...

كلنا نعرف كجزائريين تلك الأغنية، كانت كلماتها من عمق حقيقة الجمر وصدق الحزن، ومعنى التضحية بالروح والاستشهاد دون انتظار لهذه الدنيا المربوطة بأغلال فرنسا...

كل جزائري كان يعرفها ولا زال..

.....على السطايفية..

حزني على السطايفية يا حزني...

على السطايفية...

ماتوا عن حب الحرية يا حزني...

نعرفها جميعا لحنها المنبثق من زمن الأربعينيات، لا زال يثقب أحاسيسنا فيثيرها حزنا على مجزرة خلفت خمسة وأربعين ألف شهيد، منتهم العفريتة فرنسا، أثناء الحرب العالمية الثانية بحرية بعد انتصار على دول المحور، كان طعما اصطادت به القلوب الملتهبة بالرغبة، المحترقة بجهنم الاستعمار، كان الشغف بهذا الوطن الحر، نقطة تعرفها شيطنة الوأد، تعلمها جيدا وقد خبرتها في آلاف الشهداء، الذين يسقطون كل يوم بائس معها، والذين يعذبون بالجمر والنار والحديد، ويبقون على العهد .

لعبت العفريتة فأتقنت لعبتها، غازلت عشقنا للحرية وتنغمت على وترها النازف على نغم الحلم، ولكنها لا تعلم نهم قلوبنا الجائعة، فلأجل فك أغلال باريس، كان لا يهم الموت مادام بعد الموت حياتان، حياة تعيشها الأجيال القادمة، وحياة يعيشها الشهيد بلذة لا تتخيل، ولا تدركها المدارك ولا الأحاسيس..

هموا نحو تحرير فرنسا، من عقدة الانهزام والتقزيم، فالطغاة جبابرة مغرورون، يؤلمهم لحد النزف، جبار فوقهم...عبدة

للتملك والسلب لن يثنيهم عن سبيل المجد الكاذب ...إلقاء وعود كاذبة أخرى.

كانوا يسعدون بانتصار صنعوه للعدو، ظنوا الظن الحسن به، فباؤوا خاسرين..

قابلتهم الواعدة كذبا، بالقتل دون اكتراث، الحرق دون رأفة، التمزيق دون شعور، فرنسا قتلت كل حياة، إن كان ذلك ضمن نطاق الشعور أو ضمن مجال اللمس..

مجزرة كافأت بها من صنعوا لها انتصارها، الذي كان سيكون حلما آفلا لولا أيادي أولاد الجزائر البسيطة والعظيمة..

وزج الأبطال في غياهب السجون الباردة والمظلمة، أبطال احتضنهم المعتقل جميعا، وتعرف كازا على صديقه الصدوق، عبد المجيد أوشيش، وآخرين منهم الميكانيكي محمد نواني، الذي أخذته قوات التحالف معها وسحبته نحو قاعدتها الأمريكية في مدينة الناصرة بالمغرب، وسينسج التاريخ مقتطفا بينه وبين كازا، إلى حيث الرمق الأخير.

إنهم أبطال نذروا المال والروح والدم، منهم من مات واستشهد، ومنهم من عاش فكان قدرهم غالبا السجون الظالمة لفرنسا..

ثم..

بعد شهور تم الإفراج عن المعتقلين، وكان كازا من بينهم، أحس بأعين البوليس الفرنسي تحاصره، وتبحث عن سجن جسده المرتبط برغبات وأماني كثيرة، جسد تقتله الأغلال والقيود، فالنسور المحلقة لا تسجن في أقفاص للعصافير...

تركها...ترك ستارنو راحلا إلى الغرب، في جنح الظلام انسل بعيدا عن مدينته، خطط كما رسم له قدره، طريقا نحو الغرب صفحة لم تكن جديدة بالنسبة له، فالتي قبلها كانت في قلبه حاضرة دوما..ووهران كانت الفصل في تمحور بطولته نحو العمل المسلح والذي تخطت به عبقريته عمل السلاح بشكل مدهش المدينة الجديدة استقبلته، والبرلينغو كان الجزء الثاني لمغامرة أكثر اتساعا لعالم التجارة والمال والسياسة، ستنبطح له جباه كثيرة فيها، فيستدرجها بقلب مسعود الكبير، وعقل كازا الحاذق والنبيه..وتجارة مستر هاري العبقرية..

الزمن في وطن محتل، مزيج بين الشعور والانتظار، المكان فيه حياة ميتة وموت حي، ليس البرزخ...لا.

بل إنه شعور يشبه مسمارا صدئ من الفولاذ الصلب، ينخر كل مسامة على الجسد، وانتظار لثورة موجودة أصلا لكنها تطبخ لزاما على جمر الأفئدة..

الذروة ليست في الصراخ من الألم، الذروة هي عدو يعيش بعلو على شموخك وكرامتك وحريتك، العدو القبيح والمتجبر هو الذروة، التي لا بد لك من ضربها في عمق روحها الشريرة والمتمردة، تلك العفريتة فرنسا كان كازا يدرسها ويحللها جيدا، فباتت ذاكرة متصورة، بل كل صورها الرعب بذاته، إنها العدو والعفريت...إنها العدو المكروه ...المكروه.

وهران 1950إلى غاية 1956..

رشيد كازا

لا زالت حلوى البرلينغو تفعل الأفاعيل، طعمها النعناعي سحره كازا بأعماله الخفية، طوقه بالحرب المستترة والمشتعلة في داخله بخفية، أليس الكفاح مراتب؟ وكفاح مسعود جمع المراتب جميعها، والشعب شعب لا يقبل المذلة ولا القيد، الطبيعة والغريزة الجزائرية، جعلت كل جزائري يطوق لإعلان الحرية، لإطلاق رصاصة تعلن بداية الثورة، وثوار دون سلاح، كعالم دون كتب، دون تاريخ ودون قلم وتدوين..فمنطق الثورات قد رسخ مبدأ ما أخذ بالقوة لن يسترجع إلا بقوة أعظم منها.

كان يعلم أن الانفجار قريب، لن يكدس الظلم والسنون، حمالا ثقالا على قلوبنا هباء، الشعب الجزائري يغلي من جبروت عدو يغتصب ترابه وثرواته وحقه من مئة عام ويزيد..

فهل هذه حياة؟

لطالما كانت الحياة المسجونة أسوء من الموت، والموت سترا، والسجن عارا ومذلة للأحرار..

في وهران.. بدأ اللعب على العفريتة والمسخطة فرنسا، وبدأ اللعب الحقيقي لكازا، كان من قيادي المنظمة السرية LOS والتي تعمل على تهريب السلاح للثوار، كما كان بطلها الثائر

ميلود هدفي، غير أن تهريب السلاح خلف حلوى البرلينغو، بات تفتيشه غريبا ومكثفا، أحس كازا بالخطر، غريزته القوية تستبق الوقائع، وهناك تأكيد قد وصله من بوصوف والذي كان صانع وأب المخابرات الجزائرية وعرابها، وها قد راسلهم برسالة مستعجلة ومشفرة، فلقد بات اكتشاف السلاح قريبا، والأعضاء سوف يعتقلون ويسقطون في يد العدو، واحدا تلو الآخر دون شك، كان من المهم جدا بل لا بد من حماية الرفقاء ومهما كانت الظروف، ففي ذلك الوقت لعبت المنظمة السرية LOSدورا بالغ الأهمية في تزويد الثورة بالسلاح، والقضاء على هؤلاء الأبطال أو الإطاحة بهم ستلحق كل الأذى بالعمل الثوري المنظم، فأبلغهم ليتجه كل واحد فيهم لجهة خفية، وغير كازا مكانه سريعا، وانطلق لوجده المغربية، حسب أوامر بوصوف ليلتقيه مرة أخرى هناك..

الأرواح ستتعارف كحبات الرمال، تتجانس فلا يختلط التراب ولا الحصى بها..

ذرات تتكامل فتصنع خلوا لا يحتمل قفاره إلا الرجال، هذا الفتى كان رجلا لا يكترث للطرق الخطرة، ليس تهورا بل كانت شجاعة سطرتها عقليات للأبطال، ولأنه غارق في مستقبل للحرية فقد عقد العزم بالمضي.

العراب بوصوف عالم وعبقرية أخرى، صانعة لعدة شخصيات خدمت الوطن بأرواحها الغالية، واستشهدت فداء لرؤية الجزائر الجديدة ..المحررة ...التي يسكن اسمها...على الشفاه كأول وآخر الأسماء..

في لحظة غالية من تاريخ الوطن، لم تأت عن طريق العبثية ولا الصدفة، قرر بوصوف إسناد مهمة تجميع السلاح، بما في ذلك الأجهزة والذخيرة واللاسلكي، من قوات الحلفاء سريا لمسعود، كان يدرك أنه الشخص الوحيد المناسب...والضروري لمهمة خطرة وصعبة للغاية، فتى المهمات المستحيلة، يفتح طرقا تمهد للثورة المجيدة..

نظر له العراب بوصوف، الشكل الودود لمسعود، لا يكشف أبدا حقيقته المستعرة بالعبقرية، شكله اللطيف كان بعيدا كل البعد عن جوهره الحقيقي، والمركب بطريقة مثالية، تجمع الحب.. الشراسة.. النجاح ..المال.. الذكاء ....في وسط جسد لطيف يفيض بالمرح والبشاشة...معادلة مدهشة جدا أليس كذلك؟ ... أجل قد صنعها الرب الخالق ...ونقشتها شخصية نادرة...

-اسمك من الآن رشيد كازا...

قالها بوصوف في عز الاستعداد للحرب وللثورة، ليصبح مسعود زغار، هو نفسه البطل رشيد كازا..

الحقائق كثيرة في حياة مسعود، الصغيرة منها كانت متعلقة بالكبيرة بأطراف خيط واحد، كشبكة نسجتها هندسة ربانية، لا يمكن لغير شخص واحد معرفة متاهتها وطرقها المبعثرة بانتظام..

لم يستبعد قانون الارتباط من حياته، العائلة تضفي ملامح السكون والاستقرار، الأولاد صورة لحياة عادية ككل حياة..

وبعد سنتين من انتقاله إلى المغرب، من عام 1952 ارتبط في خضم ذلك كله بالسيدة شميساء شريفي، كانت من عائلة برجوازية ومعروفة، تكفل صورة راقية يحتاجها كي تخدمه في مواضع كثيرة.

والعيون اليقظة، ستشتري زمنا لا يشترى بالمال، وفرصا لن تكررها الأقدار لمرتين، وفي عام 1956 استقلت المغرب من براثن القيد الفرنسي، وأصبحت الشقيقة لا تبخل في ذاك الوقت بشيء، فالاحتلال ذاق طعمه الجميع، وتخلل بؤسه العيون والأفئدة فأسكنت فرنسا فيها مساوئ الصور..

كان كازا يشتري الجرائد كل صباح، وفي أحد صباحات الصيف، وهو يقرأ بنهم واهتمام عن كل جديد، كان أولها الأخبار وما ينشر عن الجزائر، حتى لفت انتباهه إعلان كان مكتوبا بخط رفيع في آخر صفحة من الجريدة، لقد قرأ عن بلاغ للبيع في المزاد العلني للعتاد غير الحربي لقوات الحلفاء، الذين انسحبوا من القاعدة الجوية في النواصر بالمغرب، لفت انتباهه ذلك الإعلان جدا، وعرف بحدسه الصادق والذكي، أنها الفرصة السانحة للبحث عن أشياء كثيرة ستخدم الثوار في الوطن..

وكالعادة طريقته في الدخول إلى أفئدة الناس، كان هبة نادرة، فتحت أمامه أبوابا مغلقة، بنى علاقة ودية مع المكلف بالمصالح الاجتماعية للقاعدة، وفي وقت قصير أصبح يبيعه مباشرة ودون الحاجة للإعلان عنها في مزاد علني.

ذات يوم، استطاعت الظروف أن تضع بين يديه جهازا للبث اللاسلكي، فخطرت ببال العبقري فكرة مدهشة، وقد طرح سؤالا على نفسه.

-ألا تحتاج الثورة لصوت يسمعه الجميع؟ صوت يدجج رغبة التحرر بشحن الهمم، بتوحيد همس على الأثير، يخبر الضفاف والشواطئ والصحاري، أخبارا على ثرى الجزائر، أن

الثوار باقون يحملون علما في يد والسلاح في يد أخرى، إما حرية ترفع الجباه، أو كفن مقدس يسوي بين منطق الحر الذي لا يعيش بين السجون، وصوت الرصاص الذي يتكلم حرية وكفاحا...

صوت الجزائر يناديكم أيها البسطاء في كافة الربوع، أيتها الجبال الشاهقة على كل هذه الأرض، هنا صوت الثوار، صوت إذاعة الثورة من الجبال تناديكم...لتبدأ أول إذاعة جزائرية في السادس عشر من ديسمبر من عام 1956 بالناظور المغربية...

أيها التاريخ اكتب أبطالنا، فأنت الوحيد من يُبقي الحقيقة خالدة دون زيف.

كانت خطوة نحو فتح الطريق لإسماع صوت الثوار للثوار وللعالم كله، الأجهزة اللاسلكية كانت جلها من توريد كازا نفسه، سلاح يعتبر العين الثالثة لجيش التحرير، ونقطة تحرك مئات الآلاف من الثوار عبر تنظيم محكم ومسيطر عليه.

الثورة افعل كل شيء لتنجح..

مصنع الملاعق والبازوكا..

الرؤى في زمن الثورة واجبة، تتساوى فيها الأشياء جميعا في ذهن الثائر، كل المنطقي واللامنطقي يصبح مسموحا، كي يصير ويكون سلاحا ضد العدو، يقال ..كل شيء مباح في الحب والحرب، والحرب سيكون إعلانها الأخير إما انتصارا أو هزيمة، لأن المعارك التي كانت جزءا منها بنتائجها جميعا، ماهي إلا مراوغة صغرى، لا تكشف عن النهاية الكبرى المنتظرة، ولكن الحرب هي النتيجة الفصل، والمصير والقدر الأخير الذي يباح فيه الشرف بكل أشكاله وأفراحه إن كان انتصارا، والمذلة إن كانت هزيمة...

كازا كان يلونها بألوان العلم الجزائري، والمغرب وطن ثان، فيه كان ينظم ويؤسس لعالم من المخابرات الخارجية، التي فصلت بقدر كبير ومثير في نتيجة الثورة..

ولا بد أن التاريخ سيصرخ ليمزق صمت الناكرين، ويخلق من أشلائهم منارة للتائهين، من يتيه ليتعمد النكران فاللعنة ستكون حتما مصيرا للجاحدين..

كازا...قد تفطنت قريحته، فكنز السلاح من قوات الحلفاء مصيره النفاذ، والعقول التي تدبر قادمها عقول مقدسة، القضية ليست فرض منطق أي أحد، القضية هي كرامة شعب، مصير الملايين من الأفراد معلقة أقدارهم بين بعث جديد أو انتهاء مؤلم ومعذب..

كل شيء ليس مستحيلا لمسعود، المستحيل هو وطن محتل، تراب مغتصب، وكرامة محتقرة، لهذا بات لا يعبأ بأمواله التي تنهمر عليه بفضل عقل أسكنه الله جمجمته..

الاهتمام والعبء..كان الجوع والمؤونة للثوار في الجبال، كل ماله لهم قبل والدته نوارة وزوجته وأطفاله الخمس ، الثوار هم عائلته المتأصلة في عمقه الثائر هو الآخر، فانتصبت همته صوب الهدف الذي كان صعب المنال..

هل يمكن أن يقف أمام نفاذ لشريان الثورة؟ الثورة دون سلاح تعني هزيمة لكل شيء يحمل معنى الكرامة، إذن فكما كانت حلوى البرلينغو غطاء غطى تهريبه بها للسلاح، فإن تأسيسه مصنعا للشوكات والملاعق، كانت وراءه الحقيقة المدهشة والتي أخفاها عن أقرب أقربائه، لا أحد كان يعلم لا أحد..

مصنع الأسلحة الذي أنشأه بتقنية لا تخطر على بال الشيطان نفسه، بقريحته الخلابة استورد قطعا لا تمت بأي صلة للسلاح، لا شيء كان يثير الاستغراب لدى المغاربة أثناء التفتيش في الميناء، ليتنصل بمهارة مثيرة ومتقنة من انكشاف سره وعمله، ثم ركبها بطريقة مذهلة، ليغطي الحاجة للذخيرة التي كانت ستكشفه عاجلا أو آجلا.

وبعد حين، بدأت حياة كازا المالية تزدهر، وثورته تلك لم يبن عليها، تكبر وغرور أغنياء قارون، هذا الرجل بنى ثروة لتصبح بابا للنفوذ، والنفوذ أسس به انتصارا لوطنه، دعم بصدق كل خادم لقضية الجزائر، وأسس شبكة مذهلة وخارقة بعقله النابغ، لأكبر شبكة عنكبوتية عالمية للمعلومات الحساسة بجدارة،فلا أحد من الشخصيات على أرض الجزائر أو المغرب، كان يتحرك دون علمه، لقد امتدت مصادره من المغرب إلى أوروبا وأمريكا نفسها، بل لعقر دار الجنرال ديغول بذاته، زرع عميله كالساحر، ودس جذوره في رأس فرنسا، بوهج لا يراه حتى المبصرون.

مصادر جمعها من علاقات لا تعرف احتمالية الخطأ، ليس لأنه منزه عن ذلك، بل لأن الجميع جعلهم يؤمنون بقضيته، فاخترقهم وأحاطهم بالمعنويات والمادة، واختار بالضبط وقت صيده بذكاء شديد.

فالثورة خطة عظيمة، ضد كل شيء يقهر الرغبة في الكرامة، لن تقوم إلا اذا انفجرت قوى الصبر، تنفذ ككأس امتلأ حتى القطرة بعد الأخيرة، عندها سينسكب بمجرد هزة لجناح بعوضة، لم تكن لهزتها قوة ولا بأس ...

مصنع الملاعق والشوكات، كان وراءه عمل لا يسكن ولا يهدأ، والبازوكا هي الشوكة الحقيقية التي ستثقب مرارا كيانا يستدمر الحياة.

كل عامل في مصنع السلاح الخفي، لا يملك قانونا يحدد زمن عمالته، الإخلاص للوطن هو الذي يحدد مدة الاكتفاء من تركيب قطع البازوكا واللاسلكي والمسدسات، الإخلاص بات وحدة زمنية، تحدد وحدها مدة النضال...

لا يقاس العمل الحقيقي، سوى بتعب الضلوع وإنهاكها، سوى بتشقق الكواحل والأنامل، سوى بزفرات محمومة ومقهورة.

مصنع السلاح، لا وقت فيه يشير لانتهاء العمل، الشيء الوحيد الذي يتعبهم هو الخوف على وطن محتل، سينزف أولاده أعمارا دامية، إن توقفت همم الرجال...سحقا! للمحتل وعقيدته على كل أرض سلبها دون حساب.

أما صناعة الأسلحة، فليست مجرد تطبيق عرضي، ينتهي بتركيبه وإرساله، وليست أبدا هذه هي الإشكالية الوحيدة، المسألة أنهم فوق أرض غير وطنهم، ستكلفهم معرفة ما يصنعونه فشل كل ما صنعوه فيهدم الأمل حاضرا ومستقبلا..

كان لا بد من السرية الشديدة، التي بفضلها سيمكنهم التحرك دون إفشاء الحقيقة المدهشة، حقيقة تتصلب لها شرايين الحاقدين، الذين يظنون أن فرنسا هي كل العالم والأرض..

كان كازا ينسل فردا نحو الغابة، لتجريب البازوكا وبقية القطع والرفاق كانوا كذلك أيضا، جودة السلاح، معناه حرب مخطط لها بجدارة واستحقاق، والرب مع ذاك الإنسان الذي يصنع لنفسه تاريخا دون أن يدري...

لقد بنى خمسة مصانع للسلاح كانت في مدن مغربية مختلفة منها الدار البيضاء و مدينة العرايش وفي تطوان وفي بوزنيقة .. لقنيطرة، لتتضاعف المسؤولية أشد وأشد، ولا يمكن لهذا أن يفنى بعد كشف حقيقة روح الثورة الحقيقية...

المجد..للشهداء الأبرار، وهل هناك مجد غير روح تضحي بنفسها لأجل فك قيد روح أخرى، العمالقة لا يموتون..العمالقة مساكنهم أعالي القمم...

لا تكتفي تلك الذوات النابغة، في فك طلاسم التدنيس والتزييف الفرنسي فقط، ولم تكن عقلية كازا المبدعة مجرد إتقان حازم وبالغ وشديد السرية تبرع فيه مناهجه التي هي فوق كل مستوى فقط، بل صنع ثورة في غرس عملاء في كل عقر وركن، منهجية جاسوسية فريدة لا يخطئها مسعود، بصمته مؤثرة ودامغة وستبقى درسا معقدا كاللغز، الذي سينتج عن حله عالما آخر من عبقرية الإنسان....كازا مسعود داخله شجن مخفي، في الأعماق لا يدركه غير خالقه، كان السبب نظرة عينيه رغم بسمته التي لا تفارق مبسمه، ولا خفة روحه المتوهجة والنادرة...كان مبدعا يخفي ذلك بحركاته المستحيلة، معلوماته التي أوصلها لعرابه بوصوف بدقة وتحديد..

ورغم أن الثورة مشتعلة، وثمار جهوده تجنى وإن كان بالدم، فالعمل لا يتوقف لحظة أو طرفة عين، شغور الزمن سيدفع الوطن وحده نهايته..

كان خط شال وموريس، وباء صادت به فرنسا كل من عبره، كانوا يظنون أن الموت سيخيف دروب الثوار، وهل الثوار يخافون؟

الثورة كانت ضد الخوف، فكيف يكون الضد هو المنهج والطريق؟ لطالما كان سلخ الجلود، ونزع الأظافر، وقطع الأنفاس، مجرد عربون لجنة أخرى ومستقبل آخر..

لم يعد من حل سوى اللجوء للضفة الأخرى، الملك المغربي كان السبيل في نظرهم للمساعدة في استخراج متفجرات تبسط طريق شال وموريس أمامهم، ولكن هذا كان دون جدوى، الظروف معاكسة وصعبة جدا، وعند تعقدها لن يكون غير الساحر كازا، من يذلل كل هذا القهر والجبروت..

كان العراب بوصوف، يعرف جيدا مدى تحكم مسعود في هذه الأمور، وككل مرة راسله بعبارة واحدة، .....افعل كل شيء لكي تنجح.....

منذ قراءته لتلك الرسالة، عرف ما الذي سيفعله، شبكته التي تحيط مواقعه الممتدة عبر القارات، بدأت تعمل بمجرد سماعها لإشارته، حتى أتاه الخبر اليقين، استعد لوضع خطته، بعد أن عرف موقع مصنع المتفجرات المضادة والذي كان في الدار البيضاء نفسها، اسم رئيس المصنع الفرنسي، حياته عائلته عاداته أحباؤه ...كل أسراره كانت أمامه في لحظة..

المعتقد والإيمان سيكونان دائما الغالبين، إنهما المحركان اللذان ينتجان فردا يتحرك وفقهما، ولا يهم أبدا الوسيلة التي تبيح غاية

الحرية المطلقة، الفرق الوحيد بين شر هذا المنطق وأسلوب كازا أن الهدف لم يكن فرديا ينبع من رغبات واحد فقط، الهدف والغاية كانت غاية شعب كامل أذاقته فرنسا طعم قيد يدمي المفاصل ويكبح ملذة الطيران بل التحليق في سماء أرضه دون خوف.

أباح له هذا وضع رئيس المصنع أمام خيار وحيد، إما المتفجرات أو حياة ابنته...

بومدين وكازا...

أرواح تآلفت..

الوطن والشعب، الخيال والحقيقة هما وليدان لثورة مدهشة وعبقرية، التاريخ وحده من يحتفل بسمو كتاباته، ورقي محاربيه ومقاتليه البواسل..

أحيانا تكتب لنا أشياء غريبة، ترتبط في جلها بصدفة لم نرقبها ولم نأمل فيها بأحداث ارتبطت بها وولدت منذ تاريخها الأول...

كما حدث له، كانت المشاعر تتآلف برباط الأخ وأخيه، هناك شيء يشد وثاق هذا الطريق ..كان أولها الثورة وثانيها الصدق، الصدق الذي نسيناه في هذا الصراع، الذي سربته لنا مفاتن الدنيا من خرم جهنم، من منبثق الرغبات المثقلة بأهوائنا وشهواتنا..

أنستنا أحبابنا مبادئنا وأغلى ما قد نملكه كبشر، وهي القيم التي إن غابت وانتهت، أصبحنا كائنات غاب لا أكثر..

بومدين تعلق بزغار، في ذلك الوقت وبين نيران الثورة المشتعلة ، تولدت صداقة لم تكن سوى ومضات صدق ورجولة وحياة، لم يكن عقل بومدين الثوري الفقير، كعقل كازا، بومدين كان قاسي الملامح صارما لحد الجلد، لا يتكلم كثيرا، لا يبتسم إلا نادرا، يضبط كل شيء في وقته وفي مكانه، عكس تقاسيم مسعود، التي تنشرح لها القلوب والنظرات، بسماته كلماته الطيبة

والساحرة التي تنفلت من ثغره فتثلج الصدور، كانت النعمة والأنيس الذي بحث عنه بومدين ليجده في خليله كازا..

كان يحتاج لصديق، كما نحتاج كلنا لصديق، ذاك الذي يلم جراحنا قبل جراحه، ويضع أسرارنا داخل ضلوعه، وتجده يفرح لأفراحنا بل يبحث عن أشياء تصنع بسماتنا وسعادتنا..

وهذا لن يكون إلا إذا قررت الأقدار هذا، والتقى عملاقان كهذين، جمعتهما ثورة لم يشهد التاريخ مثيلا لرجالها أبدا...

كانا كالريح التي ترسل لواقحا للثمر والورد، كالريح التي تحرك مراوحا جبارة، تنسج لنا طاقة لا دخان فيها..كهذه القوة خلقت صداقة من غضب ضد القهر والقيد والظلم.. فبقت إلى آخر الطريق، وإلى آخر اللحظات الأخيرة..

الاستقلال..

جويلية 1962

حقك في الحرية، في وطن محتل، لن تفتكه إلا بموت أو حياة، العالم الذي لا تكون فيه حرا فلا تعش فيه، بل اقتلع حريتك وإن كان موتك لا بد منه..

لا ظن ولا شك في هكذا سبيل، فالجبناء الذين يرضون بسور شائك من غاصب ومستدمر، فهم ميتون كل حين وكل مكان وكل تاريخ..

هكذا الأرواح التي تقدس التحليق فوق القمم، ستكون فوق كل عال وكل شامخ وكل شاهق وبعيد، وأجسادها لن تبل تحت الثرى، ولو بعد ألف عام..

التضحيات.. الجرأة ..التصميم..الأحلام ...كلها توجت بنصر عظيم، فباتت قلوب البسطاء تنبض كالطبول، والعظماء الذين خططوا لفرحة الاستقلال، لا تسعهم كل هذه الأرض والسماء.

طعم الحرية يليق بهم، استخراج الشقاء والقهر من العفريتة فرنسا، يشبه استخراج النخاع المريض من عظم حي ومستيقظ، والبراء من عذاب الظلم وإن كان مؤلما لحد الموت، فهو القصاص للحياة..

فما أجمل حرية تؤخذ من وحوش البشر! من قاهر يغتصب حق الآخر بشيطنة عظيمة، ولكنه كان شعبا لا تثنيه قوة عدو مستبد، ولا جبروت جبار عنيد..كان أشد من استدمر أرضنا ونهبها لأكثر من مئة عام..

وبدأ فصل آخر لكازا، بدأ نضال مختلف الزاوية، ولكنه لنفس المستقيمين، بدأت الزاوية تنفرج نحو عالم واسع لتكثر أحداثه وخططه، لم يطمع في السلطة، فهي لا تخلف ولا تترك نكهة يحبها، سبلها منضبطة ومكانها واحد في نفس المرتع، كأنه سجن لروحه المحلقة، لا تعجبه الرتب العسكرية، تبدو كتحديد لقامة طويلة، وتمدد بسيط لقيمة لا تثمن بأي ثمن..

عظيم أنت يا كازا، نادر كشمسنا الوحيدة في هذه السماء، والتي ينبثق منها كل ضوء فينير تاريخا لن تخبئه الأيادي الآثمة.

يخونني قلمي..يخونني في صراع أحداثك يا كازا، كأنني أحاربها في أسر أبتغيه لها، فكانت صعبة النزال والمراس..

عالمك محطة تريدها لما تريد، وليست كما نريد نحن، وليست كما ترغب كل رغباتنا وأمانينا البسيطة..

لقد تنازل الرائد مسعود زغار، وطلب الانسحاب من نمط الرتب العسكرية، تفرغ لشغفه الذي جبله الله عليه، عالم

المخابرات الذي يخدم قضية وطنه، لطالما كان العالم الوحيد الذي سحر مسعود، وبرع فيه كازا كما لم يبرع أحد ..

جوني كان أحد أهم العلاقات التي صنعها عقل ومخطط زغار في وقت الثورة، وأثناء تواجده في المغرب، كان الخيط الوثيق الذي ربط بينه وبين شخصيات مهمة وعالية المستوى في الولايات المتحدة الأمريكية، ليصبح كازا الخيط الآخر بين شخصية بومدين والعالم الخفي الذي لا يريد أي مسؤول كشفه وظهوره..

وفي عام 1963 إلى غاية 1964 بدأت حرب خفية أخرى تنشب نارها بين الرئيس بن بلة المنتخب في سبتمبر 1963 كأول رئيس جزائري للجزائر المستقلة، وشخصية بومدين الذي اختلف فيه بشكل واضح معه، فالهدف الوحيد الذي كان يجمعهما في انتصار الثورة، لم يشفع بينهما، ذلك أن اختلاف رؤاهما السياسية والأيديولوجية كان وفق منظور متناقض، لا يشبه فيه أحدهما الآخر أبدا..

لجأ الصديق لصديقه، بومدين كان يعرف كازا، يعرف أن السلطة لا تغريه، لا تشبع لهفته وعشقه، المرونة العجيبة التي ميزته، رغم أن مسعود لم يشبه بومدين أيضا في شيء، ولكنه كان معدنا نادرا، وندرته في وجود رجل بمميزاته وسلطته، ولكن لا

تجذبه السلطة وفتنتها وسحرها، رغم عبقرية مدهشة ميزته واقترنت به، في زمن كان يقتل الأخ أخاه لأجلها...

كان بومدين قد استوزر وزارة الدفاع، في ذاك الوقت ليس الداخل مضطربا فقط، ولكن الخارج يتأرجح بين فكرين متناقضين، تختال الاشتراكية والرأسمالية على العالم، لتجذب في تنافس مربك وخطير كل دول العالم نحو هاتين البؤرتين، يصطف القوي والضعيف أمام استعراضين يترك مصير الأرض بين كفي عفريت..

كازا وتلك الظروف التي كونت علاقات متينة، قد تكون حينا ظاهرة وأخرى خفية، بينه وبين عالم الولايات المتحدة وأيدولوجيته، احتاجها بومدين بشدة، فالأوضاع أصبحت حتمية ورهانا لأجل مستقبل الوطن..

وهل يوجد أكثر من وهج وسحر وبصمة كازا؟ مأمن سره وموطئ ثقته العمياء..

كان لا بد له من لقائه شخصيا، لا بد أن يسحبه مجددا لعالم المخابرات، فالحال المتذبذبة للبلاد، تحتاج له كما احتاجته أول مرة..

السلاح ...المعلومات...الأخبار...الجديد، ما وراء المحيط لن يقدر على الغوص فيه أحد غير صديقه مسعود..

بدأ الوزير يريد اعتلاء السلطة، والرغبة وحدها لا تكفي، بقدر جرأته بقدر تقديره لمكامن الخطر، كان بومدين يعرف أن السلطة لن تهدى له، ولن يتنازل عنها الرئيس بن بلة فهذا نفسه استحالة مبينة..

ومن غيره ينسج نسيجا مخططا له دون زلة واحدة؟ هندسة محكمة يرسمها كازا كعادته، مأمن سره وحده يفعل هذا، لم يكن هذا جزافا، ولن يؤتمن جانب الصديق إلا بموقف حياة أو موت، فقبل سنوات قليلة، أنقذه من موت محقق، فالعراب بوصوف كاد أن ينهي حياة بومدين لولا خطة مسعود، رغم أبوة بوصوف لكازا، كان هو لن يقتل صديقا أعطاه جانبه..

الوفاء إن كان جميلا، فثمنه قد يكون حياة بأكملها، وتضحيات تؤخذ وتدفع مريرة وقاسية، لا يمكن أن تتحملها الجبال بذاتها..وخاصة في تلك الظروف وعلى وقع أولئك العمالقة الذين يتنازعون السلطة ومكائدها.

سافر بومدين لمسعود، كانت وهران تحتضنه دائما، محببة لقلبه وقريبة له، ذكريات بكاملها تعبق بها طرقها ونهاراتها ولياليها، احتضنه ورحب به، وحدس كازا يأخذه حيث فكر، لن يتحرك بومدين بهذه السرية إلا لسر كبير، وهكذا كان الوحيد والوحيد الذي عرف ما يريده صديقه..

بومدين أراد من كازا خطتين ..خطتين فقط، الأولى للنجاح ...الثانية للهرب..

من يعرف مسعود سوف يغمض عينيه، ويغوص حتى إن لم يستطع التنفس، فلا بد أنه في الوقت المناسب، سوف ينقلك قبل ابتلاعك لمياه البحر ثم الموت، لشاطئ النجاة..حيث لم تتوقع أنه يخبئ دائما لعبة أخرى لن تتوقعها أنت كصديق ولا الجانب الآخر كعدو..

وبالفعل تحققت خطة كازا، نجح الانقلاب واعتلى وزير الدفاع سدة الحكم، ولأن الطريقة كانت ستجلب له تصريحات دولية تنغص عليه وتصعب على بومدين في الداخل والخارج مهامه وشكليات السلطة، فقد رسم كازا للعالم صورة بطولية لبومدين، لتصبح التصحيح الثوري بدل من الانقلاب، كان يحتاج لصوت يتبعه الجميع، يطمئن قلوب الجزائريين، وهل يوجد مثيل العراب بوصوف؟ كان تدخل مسعود يجر بوصوف نحو ما يريده بومدين وزغار نفسه، رغم ما كان قبلا بينه وبين بومدين، إلا أن كازا نجح كعادته، لقد تمكن بسحره عليه وأقنعه بمسار بومدين..

سطع وهجه، ليتمكن من وضع يده على جزء كبير من حياة الرئيس، استطاع أن يقدم خدمات هائلة بعدما امتدت حبال

علاقاته، لأكثر الشخصيات الأمريكية حضورا وتأثيرا، كالرئيس جون كنيدي، والرئيس ريتشارد نيكسون ورائد الفضاء العقيد فرانك بورمان، ورئيس تشيز منهاتن بنك روك فيلر وغيرهم كثيرون لقد كان رغم اشتراكية صديقه ورئيسه بومدين، يعتنق أفكارا غربية ورأسمالية، لقد رأى المستقبل ببصيرة ثاقبة امتلكها، وعرف أن النظام الاقتصادي الأمريكي سيثبت قدمه كنظام وحيد في العالم، بل علم مصير العالم ومكان رسو نظامه وكيفية بقائه على مد الثلاثين سنة القادمة، كان الشخصية الجزائرية المحببة والنافذة لدى معسكر غربي قربه ليخدم مصالح وطنه بعدما كان بعدا بعيدا كجغرافيا وأيدلوجية أيضا...

تلك عادته... موهبته، وأكثر الأمور شغفا بالنسبة له، العالم الخفي والوجه الآخر والحقيقي، عالم المخابرات الذي أسره منذ كان طفلا..

بصمته امتدت نحو القارة الشرقية البعيدة، حيث كان أصدقاء زغار الأمريكيون يتخبطون في أزمة أسرى الهند الصينية، ليتدخل مجددا وينجح في استردادهم ورجوعهم لوطنهم..

كازا كان الساحر رجل المهمات الصعبة بل المستحيلة، العبقرية المفقودة كقارة أطلنطس، بعيدة نحلم أن نجدها مرة أخرى ولكنها تبقى أسطورة قد وجدت ثم أفلت ونحن بها مولعون..

قلب كازا لم يعرف كرها إلا كره فرنسا، وكيف لا؟! وقد ولد وهو يشاهدها تحتقر كل جزائري، تمتص رياحين وطنه كأفعى مسمومة الجلد واللسان، تركت المكان ولكن أشباحها وصغارها لا زالت تتمشى فيه بوثوق، لا زال هو أيضا يبحث عن حرقها، فالأشباح وصغار الأفاعي، لن تصطاد إلا بالتعاويذ والنار، تعاويذ التخطيط لهندسة الرحيل، لن تكون إلا بعقل كازا الجبار..

نوارة ماذا أنجبت لهذا الوطن؟ عبقرية تكتبها التواريخ الشامخة المليئة بالفخر، المزهوة بوطن يصونه الرجال، ويحفظه المؤمنون بعذرية تربته، وقدسية شهدائه الأبرار.

كان كازا يحلم بوطن نقي من المحتل، خامة غالية استخرجها الاستقلال من بين أنياب فرنسا، ولصقلها لا بد من صائغ مبدع يعرف قيمة هذا الحجر الكريم، يتقن أسلوبه ويعرف أين يستخرج مكامن الجمال..

ثم ضرب الضربة الموجعة، التي لم تغفرها فرنسا له أبدا، و هي شريان الطاقة الذي لا زالت تمتصه دون وجه حق، رتب كازا لكل الأمور ونظم الحدث بسرية تامة، واستطاع كعادته صف الولايات المتحدة لجانب حدث تأميم الرئيس بومدين للبترول..فحقق بذلك أكبر سحب لمورد اعتبرته العفريتة حقا لا حق لها فيه، انتزعته عبقرية وقوة تفكير مسعود بجدارة..

هزمها فحقدت عليه، عرفت أنه الشوكة التي تبرعمت في حلقها واستئصالها سينتج جروحا دامغة لا تنسى..

وكان هو يبادلها نفس الحقد، ولكنه حقد نسجته مغازل باريس نفسها، حقد وشحته لكازا ولغيره من الأبطال، الذين اغتصبت منهم فرنسا كل حق..

لا ينتج من النهب إلا ثورة، ولا يولد من رحم الثورة إلا الثائرون، الجزائر ليست حدا من التراب، وليست ثروة من الخيرات، إنها الحدود التي تنزلت وتقدست من السماء إلى القلوب، لا ينبض في صدورنا نبض الدم، بل النبض كان زهرة تنبت في صحارينا، وغيث يسقط على وديانناا، وشمس تسطع على جبين أطفالنا...الوطن.... الوطن كان ولا زال حبا خالدا لا يموت..

وتربع كازا فوق مجده، ثروة تكبر بسحر نظرته وعمق بصيرته، تصل فيها لمئات الملايين من الدولارات، أصبح أثرى أثرياء العالم، و شخصا يصل لأمكنة الرؤساء بكل بساطة، وجاهة بالغة لشخصية تستحق، والتي كانت خالية من أنانية الغرور، فكل شيء يبنيه يخدم فيه الجزائر، بل كان لا يصل لأي مبتغى إلا والوطن فيه ...عطاء لا يزرع إلا في نفسك الخيرة يا مسعود ..عبقرتيك خدمت أسمى قضايا وجودنا كبشر ..

مستر هاري..

إيقاع الحياة منتظم، الفناء والولادة قصتان أزليتان، لا تنتهي إلا بانتهاء كوننا، نحن بشر هزيلون أمام أنفسنا بحد ذاتها، نصنع الفوضى والألم والعذاب، ونبحث عن أشياء تبقي على آثارنا ولكنها أنانية وخطيرة ومدمرة...

وفي لحظات ...في لحظات من تاريخنا، قد يولد من العدم شخص ما، لن يتكرر لأنه كان نادرا ومختلفا ومثاليا، الرب يخلق ويقدر ما يريد، ونحن دائما ندمر ونفسد ونعيث في هذه الأرض فسادا..لمقاصد إلهية مثالية ومدهشة، دون أن نعي أننا نخرب أنفسنا وتاريخنا قبل كل شيء..

يوم ولد كازا كان العالم يتخبط في حروب كثيرة، يستعد لها فور انتهائها، ما ندرك انتهاء إحداها إلا ونشبت أخرى ثم أخرى، ولكنه عرف بشكل ما وفي قدر خلص كينونته الصغيرة، بشخصية لا تشبهها أي شخصية أخرى..

أن الحرب الحقيقية ليست في المعارك والسلاح، ليست الحرب هي التي تظهر لنا عبر الساحات والأشلاء والدمار، لأننا إذا اعتقدنا ذلك، فنحن نجهل الحقيقة الوحيدة المستترة عنا، الحقيقة أن الحرب الحقيقية هي حرب المخابرات والعملاء

والمعلومة، الشيء الثمين والفاصل الأخير في نتائج الحروب على مدى التاريخ..

يجب أن يتقمصك الجنون في عالمهم، أن تكون مجنونا حقيقيا، عاقلا عديم المشاعر كالصخور والحجارة، أما العواطف فلن تكون سوى في بسمة ساحرة تصل بها إلى أمكنة صعبة وربما مستحيلة..

كازا كان مختلفا عن البقية، مآل أفكاره ليست مجرد تطبيقات عسكرية أو مجرد أوامر منبثقة من سلطة عليا، كازا صنع نمطا آخر للمخابرات بالفعل، لم يسبقه غيره له، ولن يستطيع أن يكرره غير مثيل مسعود بالضبط...

الإشكال أن طريقة تفكيره تصرفاته تحويله لوجهة العدو والصديق، كل هذا بطريقة مكشوفة لشخصه، فهل يمكن أن نعيش عالما من الجوسسة بشخصية مكشوفة وواضحة..

هل هي ثقة؟ جنون؟ تهور؟ أم كان نمط كازا المكشوف العبقري والمختلف الذي لا يمكن تقليده مرة أخرى..

أسطورة المخابرات الخارجية الجزائرية المدهشة، التي امتلكت قلوب الأعداء والأصدقاء في نفس الوقت..

وفي الأعماق، امتاز كازا بشيء آخر ومختلف، الذي لن يزهد فيه، إلا أسطورة من اللحم والدم، فالسلطة تسحر كل قريب

منها، فمن يستطيع أن يبتعد عنها؟ إلا زاهد في ملذتها وفتنتها وشهوتها...

السلطة..الفاتنة ...العظيمة...الساحرة....كيف لك يا كازا أن لا ترغب بها؟ أن لا تغريك مقاليدها ونفوذها ونجوميتها؟

لم تخدعك يوما، كان حبك العظيم للجزائر فقط ، كان الوطن القضية الوحيدة، الذي صنعت لأجلها النفوذ والمال والمجد، كل ذلك لأجله صنعت حبا غلف روحك بستار ماسي، بريقه ساطع ينير مكانك وذكراك...

شخصية ولدتها الجزائر لتبقى موسومة بها، ليس لها مثيل وليس هاته كلمات منمقة وخالية من الحقيقة...أبدا فكازا كان بالفعل شخصية استثنائية وصلت بعبقريتها لأعلى المستويات العالمية، واخترقها بشخصية مخابراتية مكشوفة، بنجاح منقطع النظير..

امتلك مسعود ثروة انبثقت من تجارة السلاح وخيوطه البعيدة الأيدولوجيات والعالمية، والتي تغذيها السياسة والحروب والسباقات نحو التسلح والذي هب ريحها بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، ثم توسعت لشركات الطيران الخاصة وسلسلة الفنادق الفخمة في كل أنحاء العالم، ثروة تعلقت باسم

مستر هاري، والذي أطلقه الأمريكان عليه، في طريقة منهم، لإدخاله وإدماجه ضمن معاملاتهم الدائمة الود..

مستر هاري رجل الاقتصاد الذي يخفي وراءه إمبراطورية عالمية سرية، لجمع المعلومة في ظل عمله كرجل أعمال عالمي واحتكاكه بكل رجالات السياسة والمال والاقتصاد..شخصيته التي من الصعب جدا وضعها في خانة دقيقة وإن كانت عقليته ذات توجه فلسفي اقتصادي أو شخصية دمجت السياسة بخليط نادر من الصعب جدا السيطرة عليه، أو ربما كان نطاقا غير معلوم لحد الآن والذي تمكن بفضل نمطه تجنيب الجزائر حربا مع الولايات المتحدة الأمريكية عام 1967 بعد رسو الأسطول الأمريكي على سواحل شرشال، أدخله هذا النمط الذي ميزه جدا للوصول والدخول لمناطق لا يمكن أن تدخلها وأنت بشخصيتك الحقيقية أبدا، رئاسة ليبيا والعراق والمغرب وأمريكا والوصول للفاتيكان نفسه بل التأثير عليه للوقوف جانب القضية الفلسطينية.

دليلة...

لعنة ماشينو

في عالم الحب، لا توجد مساوئ ولا مستويات ولا عقل، تنعدم الجاذبية فيه، تختل توازناتنا ونصاب بالعمى، لا نعرف أي اتجاه قد ينجينا سوى الظن الجميل بالمحبوب، والرغبة الجامحة فيه، وإن كان الموت في سبيله فلا عيب في ذلك في نظر المغرمين...

تتساوى في هذا العالم، كل الأشياء إلا كفة الحبيب، فإنها الغالبة والقاضية والثقيلة والكفيلة في تحديد المصير...

وفي عالم المخابرات لا شيء يتساوى فيه، سوى نقطة الضعف التي تكون الفاصلة والمصيرية والذراع الذي يلوى فتنحدر منه وابل الآلام، وهي الشيء الوحيد الذي نملكه جميعا، إنها النقطة والثغرة القاتلة في عالمهم وهي العائلة والأحباء..

كلا العالمين متباعدان لكنهما يتعامدان في نقطة وحيدة، و يرتبطان في شيء واحد، وهو نقطة الضعف في عالم الغرام، وعالم المخابرات على حد السواء..وكلاهما يخترق بها دون حول ولا قوة.

بنى كازا عالمه بشجاعة، بطريقة برع فيها ولمع، لم يكن هناك شيء يمنعه من النجاح، فقد صنع العملاء، عاش الحب، صنع الثروة، اخترق أكثر الأماكن الممنوعة في العالم..

كل ذلك كان كعبقري، أما كإنسان ... كإنسان نسي ..فإنه قد ترك ثغرة وحيدة، ثغرة.. كان قد جعلها كريشة صغيرة في مهب الريح..

دون قصد، ربما ثقة ...ربما نصيب من النسيان نبتلى به ...ولكن الأوان كان قد أفل بعد أن غفل عنها، فحفيف الثعبان في فرنسا كان تحت الرمال، دون صوت، دون إشارة سابقة وبوجه حسن لعميلها وقناصها دونيز ماشينو، رسم عالما بديعا لدليلة، ثم تسلل لقلب المرأة الذي هو ثمرة حلوة كلما كانت جميلة، كلما أصبحت ضعيفة في أكثر الأوقات..

للشيطان مزمار، وله صوت يشعل ويزين المحرمات، فتفتن رغباتنا وأوهامنا، ثم في لحظة الضعف، لحظة الشغف، ولحظة الغضب، قد نخطئ ..لأن تلك اللحظات كلها كانت منابع أخطائنا دون تفكير منا ودون رشد..

كازا لم يخذله شيء بقدر النقطة العمياء، التي تسلل منها عدوه ودرس خطواتها وخطتها ودسترها في عقل دونيز، إنها كلمات الحب ولغة الاهتمام التي تأسر كل أنثى، وبوجه حسن هامت به

دليلة وسقطت في نسيجه المليء بالأحلام بالنسبة إليها والمليء بالوهن بالنسبة لكازا...

أخت كازا المدللة، والتي نشأت بين أحضان مجده وثرائه، كانت ببراءة منها الضربة الشديدة الوطأة على قلب مسعود...

دليلة كانت الصندوق الذي يفتح على دمية جميلة راقصة، وأغنية رقيقة حالمة، مسعود بالنسبة لها الأب الحاني، ولكن الحب الذي تكنه لدونيز، حوله لشخص كريه مجادل موهوم بجنون نظرية المؤامرة، ولا يفهم معنى الغرام لا يفقه عنه شيئا سوى كره فرنسا وكل ما تلمسه فرنسا..

عنيدة دليلة، ارتجالية القرارات، كل ما تراه بزاويتها كان هو الحقيقي والبائن البينونة الكبرى ، بل الحتمية الكاملة، وكان دونيز ذاك الطالب الوسيم في جامعة الجزائر، فرنسي الجنسية مسيحي الديانة، وهذان الشيئان الوحيدان اللذان حاربهما مسعود، ولطالما عمل جاهدا في إبعاد شقيقاته عن الحياة الأوروبية في ظل تواجدهن دائما في عالم غربي متحرر، ويبعد كلية عن العادات والتقاليد الجزائرية والتي تعتبر خطا أحمر يحرم تجاوزه عند كازا.

لم يعلم مسعود أن الحماية التي فرضها بين جامعات أوروبا وسويسرا، كان خطرها بعيدا كل البعد عن ما خططته أياد تخرج

من جحيم باريس، ليتم تسديد الثأر في عقر دار ووطن زغار. فلقد اصطاد دونيز دليلة وهنا وعلى هذا الوطن، وبين أسوار الجامعة الجزائرية، وجهه الوسيم ثقافته الشاسعة عقله الذي يلفت النظر بخفة كلامه ولمعان عينيه، وصوب الحسناء تلك كانت كل توجهاته واختياراته...

ووقعت في فخ غرامه العميق، شيئا فشيئا تغلغل داخلها، ونسج حول الجميلة شباكه، كان يظن أن تاريخ والده سيشفع لمسعود هذه القربى، سيجعله صهرا مقربا لأقوى رجالات الدولة الجزائرية، والشخصية الأقرب للرئيس بومدين، كان لا يعرف بصيرة كازا الممتدة إلى الشمال حيث يتجاوز جغرافيا باريس وخططها التي يحفظها مسعود عن ظهر قلب..

أما دليلة فلا تعبأ لخطط الجميع، العالم الذي يعيش فيه دونيز، كان هو محور الحياة وكل الوجود..

وحان الموعد الحاسم، أراد ماشينو خطبة دليلة، وبقدر فرحها بقدر خوفها ورعبها، لكنها قررت المواجهة وليكن ما سيكون ..

أسرت دليلة بغرامها لنوارة، أخبرتها بسرها بعد أن أفرجت عنه مستعطفة قلب والدتها، أخبرتها بأن دونيز قريبا سيحضر لخطبتها، فهي لم تجرؤ على الاقتراب والبوح لكازا، الأمر سوف

يتجمد على ثغرها وتنسل روحها قبل أن تنطق اسم دونيز ماشينو..

-اسم فرنسي، سيجن جنون أخي، سيسجنني مسعود و ربما لن يدعني أراه...

تراءى لها أن هكذا أمر لن يمر مرور الكرام، هل يحارب الفارس شيطانه ليعطيه أخته؟ ولكن الحب أعمى، فأي بصيرة سنمتلكها ونحن العاشقون؟ العالم وكل قوته واهنة أمامنا، حتى المنطق لا شكل له ولا مكان ما دامت العقول غائبة.

سيطر دونيز على دليلة، صور لها العالم معه منتهى الأمان والكمال، وأنه الوحيد الذي سيحبها لحد الموت..

إنه فخ الغرام الشهير، الشباك التي لن يخرج منها أي قلب خاليا من الجراح والعذاب أبدا...التعويذة منه هي قلب أصم وروح قاحلة، وعيون عمياء.

بل أرسلت باريس حصان طروادة للبطل مسعود، وكم صنع هو من أحصنة طروادية! حرفته ومصدر متعته يا سادة... اقتبسها منه دونيز و لف حصانه المسكون بالخبث، بالحرير والديباج والحلل، جعله ذي قرن وحيد كأسطورة، وجناحين طائرين لعالم الغيم حيث قصر الحب والغرام وأيضا السراب والعذاب..

تكلمت نوارة الحضن، كانت تعرف أنها بين نارين، نار دليلة ونار مسعود، ضعفت حركة شفتاها نطقت جملة تعلم نتائجها بثقل رهيب، رحمة الأم بأولادها تمزقها كلما شد هذا أو تلك على قلبها الحنون..تمزقت نوارة رحمة بهم، تمزق كازا غضبا، وتمزق فؤاد دليلة خوفا وغراما..

الثلاثة عصفت بهم دوامة لعنة دونيز، لعنة مارسها ليلقن إبليس كيف يشتت البشر ..يشتت عائلة حماها كازا بروحه..

غضب مسعود شديد،، عرف ببصيرته مكائد باريس، يدها التي امتدت لعقر داره، اختاروا مدللته، وضربوه جهة القلب..لكنها عمياء البصيرة، لعنة دونيز استفحلت في شرايينها، جرت مجرى الدماء منها، وأصبح هو دمها..

إنها لا تسمع إنها لا ترى، إنها لا تعقل....

أصبح الأمر تحديا، جريا وراء الغرام الذي أوهمها إياه، كانت ستفعل كل المستحيل...ولن تتوانى لحظة واحدة، وفي جويلية من عام 1975 رسمت دليلة خطتها، الزواج الذي يستحيل أن يرضى به ويباركه كازا، سيتم بعد أن استطاعت الإمساك بنقطة ضعف أخيها، حبه الشديد لمدللته سيجعله يخاف على حياتها بجنون، وماذا لو أوهمته أنها تنازع الموت بل الأنفاس و النزاع

الأخير؟ ماذا لو كانت في حرب ضد السرطان؟ والذي نهش جسدها ولا بد لها من علاج عاجل وإلا فارقت الحياة؟

كان دونيز المخطط السري بالنسبة لدليلة، ولكنه كان مجرد لعبة في مخطط أكبر من قلبها وعقلها الذي لا يحمل إلا الحب، وكانت تظن أن صديقتها السويسرية والتي تعمل في مستشفى جنيف ستمد لها يد العون باسم الصداقة، ولكن الحقيقة أن كل من أحاط بها من أصدقاء وأحباب ما هم إلا يد باريس العميقة، وأنامل الشيطان الذي يبدو بملامح طيبة وصديقة، لقد ساعدتها في الحصول على وثائق طبية من مستشفى جنيف، تفيد مرضها القاتل والعضال، مرضا لن يمنح كازا التفكير بشيء آخر، سوى بإنقاذ أخته مهما كانت الظروف، لتعلن هي بعد استلامها للعنة تلك، والتي لم تدركها لحد ذلك الوقت، أنها تعيش آخر أيامها وأن أعتى الأمراض فتكا، سيغيب روحا يحبها مسعود ويحميها بقلبه وروحه. ليصيب كازا الخوف والجزع العظيمان، على أخته الصغرى ومهجة قلبه. بعد أن أكد له أكثر من طبيب أن الملف الطبي يعزز ما تقوله دليلة دون شك، وفي أقل من نصف ساعة تم كتابة التفويض الأبوي وهو الورقة الرسمية التي احتاجتها للسفر، وانطلقت فورا نحو مستشفى جنيف لتلقي العلاج في اللحظة والحين.

وبعد وصولها إلى سويسرا، سافرت بعدها إلى باريس وتزوجت زواجا قانونيا، لتصبح دليلة ماشينو بعد أن تحدت الجميع، بل كانت أول من تحدت ذاتها ونفسها وروحها الجزائرية، إنه الحب المجنون الذي لن يقف أي شيء ومهما كان في طريقة أبدا.

سافرت دليلة بعد معركة ظنت أنها انتصرت فيها وهي زوجة شرعية لماشينو، من باريس إلى كندا مع دونيز، سارعت نحو بغيتها دون أن تعرف أنها خطوتها القاتلة..ما هي إلا لعبة كبيرة على منطقها، لها حلفاؤها وأسيادها ونحن البسطاء والواقعون في شباك الغرام...لم نكن سوى مجرد بيادق صغيرة..كما كانت دليلة، البيدق الذي أسقط القلعة ..ليصبح الملك عاريا ومجردا أمام انتقام باريس..

الخبر كان محطما، كازا سقط مريضا، ضربة لم تقتله ولكنها هزمته، جسده بات مصابا بداء السكري، انفعاله ..غضبه ...ألمه ..أصابه بالضعف..

دليلة ليست أخته الصغرى فقط، دليلة ابنة قلبه، لطالما فضلها على الجميع، أرادها أميرة على عرشه، مدللته الغالية أسقطته في حفرتها العميقة..الحب كان الداء ..والذي لا دواء له ولا شفاء.

مرت الأيام ..ليستيقظ مسعود من صدمته، الحادثة الوحيدة التي أسقطته مريضا، متمزقا كأشلاء قلب، وقد ذهب الزمان به، عندما كان في سجون فرنسا، عندما داهمه الموت يصارعه دون أن يحسب له حسابا أو يلقي له بالا..

حتى غدرته ابنة قلبه ببراءتها، يا شمعة الروح التي أحرقت كل الوهج، حسبك نبضه ودقاته، حسبك دمعه وألمه..

ولكن السيل سيبقى سيلا و إن جفت الينابيع تبقى آثاره تشقق الصخور والثرى، وإن أحرقت نيران المكائد ضفته، سيبقى الرجل الذي تستيقظ روحه من الرماد وتولد من قمة الوجع...

نام ولم ينم، كل همه كان إرجاع دليلته، الثأر أراده الرجوع، إلى حضن نوارة، إلى البيت الكبير حيث ستبقى دليلة زغار وليست دليلة ماشينو..

دونيز ....قلب كازا كان قلبا من شراسة السباع...والسباع سليلة لكازا..فبعد هرب دليلة انتقل كازا لجنيف أين اختفت ولم يكن لها أي أثر في سويسرا، ثم انتقل بعدها للولايات المتحدة الأمريكية، ليلتقي بصديقه جيمي أوبل والذي قد سخر كل طاقته لإيجاد أخته في الخارج، أما أمين سره ودربه علي مزنان، فلم يترك مكانا لم يبحث فيه داخل الجزائر..ثلاثة من الأعوام،

قلب الأرض عنها، وهي قد ركن قلبها للشوق، اشتاقت لنوارة للوالدة ..اشتاقت لكل ركن في منزلها الذي كانت فيه أميرة، ليحولها الحب لبائعة الورد في سبيل الزواج من دونيز، والمتخفية عن كل عيون مسعود في مونتريال...

أخيرا وجدها أوبل، الهاتف الذي رن لكازا، وزف له الخبر، أيقظ في عقله خطة مجنونة، لا تخبو أفكاره التي تقدر كل الحلول، ونقطة ضعف دليلة كان الحب والشوق مجددا..

الشوق لنوارة قاتل، لن تصبر عنه أبدا، لترجع لها الأشواق كان لا بد لها من رجوع كل العائلة إليها، الصهر زوجة الأخ أبناء مسعود، والأهم على الإطلاق نوارة الحبيبة..

الاختطاف والثأر...

كازا..القلب يسكن عقله، والعقل يسكن كبرياءه الشامخة، من يصنع الثورة وينتصر، سيصنع عالما ثائرا داخله، وإن سكن فسيسكن للأبد..

والسنوات التي مضت عليه، لم تمض سوى قيمة من الزمان، فالثأر يبرح مكانه، حتى بدأ يشتعل مجددا بمجرد سماعه لمكالمة صديقه جوني أوبل، يبشره بالعثور على أخته، التي كانت بمونتريال بكندا، مسكن دليلة طيلة تلك السنوات..

راقب كازا تحركات أخته وعاداتها اليومية المكررة طيلة شهور، بكل صبر وتريث، أين تذهب كل صباح..أي الطرق التي تسلكها، ماذا تشتري ما تأكله وما تلبسه! كل شيء تم معرفته وبالتفصيل الدقيق والمفصل دون خطأ.

وبعد رصد وتغطية كل شيء، أرسل مسعود لابنه نور الدين، الذي كان يدرس في الولايات المتحدة الأمريكية، وغرسه في مونتريال، راقب خروجها الصباحي ووضع ابنه نور في طريقها، ادعى أنه مشغول بالنظر لواجهة محل للساعات الشهيرة، وبمجرد رؤيتها له عرفته دليلة لتذهب بإرادتها نحو شباك كازا تحتضنه وتقبله. احتضنها ابن أخيها في شوارع مونتريال، كأنه التقاها صدفة وقدرا، وطمأنها أن مسعود لا يعرف عن مكانها أو

أخبارها شيئا، ثم دلها على اسم الفندق الفخم والقريب والذي تقضي فيه كل العائلة عطلة الربيع فيه كانوا جميعا مجتمعين، إلا مسعود الذي يعمل في أمريكا منذ مدة ليست بوجيزة.

سعدت فالشوق والحنين غلبها، منذ سنوات لم تر والدتها ولا إخوتها، اشتاقت بشكل مروع للجميع وقررت أن تذهب لرؤيتهم ما دام أخوها بعيدا عن مونتريال.

أما كازا فقد جمع أهله، وأعطى لكل واحد دورا، حتى نوارة كانت تستعد لإرجاع ابنتها لحضنها مهما كان الثمن مهما كانت المخاطر التي ستواجهها، كانت فقط تريد عودتها لذات المكان الذي عاشت فيه فلذة كبدها..

قبلا كان مسعود قد عاهد نوارة باسترجاع دليلة، كان كلما رآها تبكي ذكرى ابنتها شوقا، جلس جانبها يقسم لها، بأنها سترجع قريبا ...وقريبا لذات هذا المنزل وأركانه وستعود كل الأمور كما كانت لسابق عهدها..

خطط مسعود لكل شيء، وستتبع دليلة شوقها والشوق طعم، والعائلة الكاملة، منها حرمه شميساء و كل أبنائه، أختا مسعود زكية وفريدة وابنه نور الدين وصهراه الدكتور بوعكاز خالد والسيد حميدي خوجة ..الجميع معه في حربه الباردة

والمشتعلة منذ هرب دليلة والذي اعتبره هو اختطافا، كان قد طعنه في كبريائه عميقا.

عطلة الربيع في مونتريال، غطاء كمم به كازا الحقيقة، التي خططها لدليلة في ستر قلبه، العائلة كانت كعادتها، لا شيء مريب وغير عاد، كل شيء هادئ كالهدوء الذي يسبق العاصفة..

بدأت المسرحية المحكمة، اشترى بيتا في مونتريال، وجهز منوما قد اختاره طبيب العائلة السيد طالب سليمان السعيد، ثم اصطادت كلمات الشوق من الوالدة نوارة لحبيبتها وابنتها الغالية دليلة، قلبها وحنينها...فالسنتان جعلتها تظن أن الجميع قد استسلم للواقع، وأن زواجها من دونيز بات شيئا حتميا ولا بد أن مسعود قد رضخ له، لم تدرك أن الآمال كانت أوهاما خائرة القوى، فلا قانون يضبط الأحداث والوقائع في عالم كازا..

-غاليتي كل شيء بخير ..الذي ينغص علي حياتي أن الشوق غلبني يا دليلة..اشتقت أن أشمك وأقبلك وأحتضنك حتى يهفت شوقي ..وتجف دموعي التي أحرقت خدي..تعالي يا دليلة تعالي لأراك قبل أن أموت من الشوق..

كل كلمات الوالدة الهاتفية كانت صادقة، بل إنه أكثر، لقد كاد قلبها أن ينفطر على ولديها، كانت تعلم أن ولدها مسعود لن يهدأ له نبض حتى تكون دليلة معهم، الأمر في نظر كازا، يتعدى قصة

حب، كان يعرف أن ماشينو تسلل من باريس، وفي غطاء الزواج الذي طالما شجعته ونظمت ومهدت له كل السبل، في سبيل رجوع دماء فرنسا مجددا للجزائر.

إنه الزواج المختلط والذي يخطط له في عقر دار كازا، سيكون ضربة عميقة تلمس جذور ومبادئ الثورة نفسها..

زغار ليس رجل ثورة، مسعود هو الثورة العميقة والمستترة، والتي سواها بالدماء والتضحيات والحياة والموت، وعصارة عقل نابغ وعبقري..

الضربة موجهة للرمز، للشيفرة التي ستحترق إن تمت أماني باريس، أخطبوط هي امتدت سيقانه للقلب، ولفته تعصر عصارة روحه، لتتدفق الدماء منه..

كان يدرك ما تفعله فرنسا في الخفاء، وكانت فرنسا تدرك ما فعلته بكازا جيدا.

انطلت حيلة الرضوخ على دليلة، السنوات التي مرت عليها، كانت تظن أنها كفيلة بهزيمتهم أمام إرادتها، قدمت بعد مكالمة أمها، الجميع كان بانتظارها، القبلات والدموع والأحضان الدافئة والكثيرة، قد نجحت في استدراجها....

جهز العشاء، لمة العائلة في مونتريال، ذكريات يغزوها الحنين في قلب دليلة، كلماتهم على الطاولة، تجعلها في قمة السعادة، في

ظنها أنها قد حصلت على كل شيء، حب دونيز وعائلتها الغالية..

طعم العشاء.. كان مغريا ومليئا بالحنان، أكلة دليلة المفضلة، قد جهزت برائحة نوارة، وهي تنظر لهم، بدأ كل شيء يخفت، شيئا فشيئا حتى غابت عن كل موجود ومحسوس...

كازا لن يغفر لفرنسا وجودها في وطنه، ولن يغفر لها وجوده بين أحبائه، ودونيز ماشينو الخطة التي فهمها مسعود عن ظهر قلب، سيخلط أوراقها بمغامرة مجنونة لن تكون عاقلة إلا على يديه.

في خضم العشاء السعيد، دست فريدة وزكية منوما لدليلة، الشقيقتان هما يده اليمين وقلبه اليسار..

وفي لمح البصر حملت الأمتعة المخبأة والجاهزة، وضعت الأميرة النائمة على كرسيها المتحرك، الذي وضعه مسعود في غرفته، وانطلقوا جميعا نحو المطار..

عائلة راحلة إلى الوطن، والدة وزوجة وأبناء وشقيقتان يتناوبان على جر شقيقتهما المريضة، منظر رسمه كازا العبقري بإتقان، فمن كان يظن أنها عملية اختطاف ؟

وكل شيء سار كما أراد منطق زغار، وعلى متن الطائرة DC8الخاصة والتي يمتلكها، طار دون النزول للتزود بالوقود

على أرض أي دولة، بل قد عدلها لتصبح ذات خزانين، تكفيه لتحليق من مونتريال الكندية إلى غاية مطار الدار البيضاء في الجزائر العاصمة، ومنه مباشرة لمدينة العلمة بسطيف.

وعلى ظهر الطائرة، وبينما الجميع يحدق في بعضهم البعض مدهوشا، نظر له صهره خوجة هو الآخر مستغربا، لا يصدق حتى أنه شارك في هكذا أمر، ولكنه كان يحبه، يعرف جيدا صديقه العزيز، يعرف تفاصيل كازا وعقله المتفرد، ويعلم أيضا أن هذا الأمر ستستغله الأعداء، ستفعل كل ما تقدر عليه لتحويل الأمر لصالح باريس...خاطبه صهره خوجة وفي قلبه حزن دفين وخوف خفي:

- سيستغلون كل هذا يا مسعود، سيفعلون المستحيل لفتح باب جهنم عليك..

ابتسم كازا وتكلم كأن هذا الأمر آخر ما يهمه، فالعمالقة عندما تعيش بين السحاب، فالحفر العميقة ستصبح أمكنة لا يهابونها بل يظنونها خارجة عن نطاق القدر والمكتوب والنصيب..

نظر له واثقا:

-لا يهمني شيء، فليفعلوا ما يريدون، فلقد فعلت ما أريد، المهم أن أرى" يما "سعيدة..

كازا نمطه عجيب ومختلف وساحر، كل ما يفكر فيه لن يستطيع أي أحد فهمه وإدراكه، ليس لأنه معقد بل لأنه مختلف ومتفرد وينظر للأمور بزاويته الذكية، التي لن يشاركه في رسمها اثنان..

ووصلوا إلى الجزائر، نجحت خطته التي رسمها، بكل حذافيرها، لتستيقظ دليلة في غرفتها في مدينة العلمة ...في مدينة ستارنو.

حرب الرجال...

ابحثوا في هذه الحياة، عن أي معنى للوجود، فالأيام التي تمر ما هي إلى أعداد تنسل من بين هذه الأعمار، ليست العبرة أبدا في إنجازات ضخمة وأموال طائلة وجاه ونفوذ يفتح أمامنا الأبواب المغلقة..

العبرة الحقيقية هي في نعمة الرضى، في راحة تنبعث من قيمة وجودنا، من طريق نسلكه وقرار نقرره، وقد أحسسنا أنها القناعة بحد ذاتها، والراحة بكل معانيها..

طريق كازا الذي سلكه، كان قرارا يشعره بالراحة، لو أنه تركها بين مخططات دونيز، لأحس أنه فرط في كل بطولة صنعها، وكل مبدأ وقيمة كان قد آمن بها وضحى لأجلها..

كان يعلم أنها الحرب التي ستكون معلنة عليه بمجرد دخوله بدليلة للجزائر، وأن الرجال التي تواجه مصيرها بالشجاعة وكل الإدراك، سينتصر تاريخها ولو بعد حين..

وبدأت المعركة الأولى، كانت معركة مؤلمة لدليلة ولكازا، فدليلة قد تراءى لها أن الجميع قد أصبحوا أعداء، لا أحد ولا شيء يشفع لهم، كانت ترى ما لا يرون، حبيب وزوج شرعي قد تحالف الجميع لحرمانها منه، وتكالبوا على قلبها الموجوع،

وحرموها من سعادة لن تنالها إلا مع دونيز، لتصبح لبؤة مجروحة في الأسر..

وأصبح كازا السجان الموجوع، خلف قراراته عقل حكيم، وفؤاد يستصرخ الحقيقة، يريد استنطاقها من لعنة دونيز بذاتها، ولكنه أبكم وعقيم..

لتبدأ الحرب الآن...

وكل شيء سيكون متاحا فيها، بل وسائلها تبرر غايتها الرهيبة، ومن يضمر الشر، سيتحالف مع الأعداء والمنافقين وقبلهم الشيطان نفسه وإبليس بذاته، ومن يحارب لأجل المبادئ فلن ينتظر شيئا من أحد، لأنه مقتنع بسنة الخير والشر، وناموس الكون الذي يشبه المحيط والذي لن يترك الجثث في قاعه أبدا..

لا ينام قلبه، لا ينام.. فالنيام الهانئون المتنعمون، لا شقاء يوقظهم، ولا تعب يضنيهم..

تعبه كانت الحرب الآتية عليه، ففي عالم الدولة الخفي، مراسيم وقوانين لا تؤمن بالقانون، تتشرد فيه الذوات لخدمة المصالح التي تتعدد وتتفرع كالجذور، تبحث عن من يغذي ساقها وبذورها في الثمار..عالم بقدر خفائه، بقدر أنه العالم المتحكم في الجميع كالرداء الذي يستر قواما وهيكلا لا أحد يعرف سمنته من نحوله..

القائمون عليه، والمتحكمون فيه، لن يعرف بعضهم بعضا ولن نعرف نحن حقيقتهم إلا إذا انهارت الدولة وهبت..

وبدأت أعداء كازا توشم وشمها، تطفلت العيون عليه، وانبلج سره للعيان، وبات مكشوفا، سر اختطاف كازا لدليلة، كان قد تسرب للصحف الفرنسية، حملة مسعورة منظمة وممنهجة، فالإعلام سلاح قد يقتل، وسلاح قد يبث الضوء في زحمة من تراكم الظلام والخفاء..

دليلة باتت قصة لضحية وجبروت الرجل، لقد صورها الإعلام المختطفة والضحية، وصور مسعودا الخاطف والسجان ...

ونشبت حرب إعلامية رهيبة، دونيز حول كل الأنظار نحو قضية باتت حكاية للعلن، وبدأ هو في الطرف الآخر يضايقه ضوء مسلط عليه....

ومن سر أراده ألا ينكشف، إلى قضية رأي عام، سهم وجه لصورة كازا، تحاول تخريب تقاسيمه البطلة، صدرت مذكرة توقيف في حق السيد مسعود زغار، والسيد حميدي خوجة والسيد بوعكاز خالد. من طرف القضاء الكندي، ومورست أشد الضغوط على الرئيس بومدين وعلى رفيق دربه ومنقذ

حياته، أرادوا منه تسليم كازا...و أرادوا من الرئيس تسليم دليلة!

الضربة كانت امتحانا صعبا لكل محيط مسعود، العائلة والأصدقاء والأحبة، باتوا في أصعب وأقسى مرحلة من عمر صداقة عاشت لعشرات السنين..

كانت أهمها على الإطلاق، صداقة كازا مع الرئيس بومدين، فتلك الحرب الخفية قد قامت لأجل اندثار رجل واحد فقط، والمغلوب فيها لن يبقى له رجاء ولا أمل...

ولكن...انعكس ظلام قاتم على أهم جزء في علاقة الرئيس بصانع الثورة وصديقه المقرب، أصبح بومدين في وجه المدفع، ضغوط تقلب قلبه على كازا، تحرك موازين جديدة أقلقت الرئيس وجعلته غاضبا يواجه أعداء في صورة حق يبحث عن حقه...

لعنة دونيز حلت على حرب مسعود، فقد في هذه المواجهة رضى صديق دربه، ونقطة قوته ومكمنها، فبومدين كان كتوما قال القليل، وأخفى بين شفتيه الكثير.

مذكرة التوقيف بحق كازا وصهريه، رفضها الرئيس، واعتبرها مشكلة عائلية، لا دخل للدولة ولا السياسة الخارجية فيها.

في منطق السياسة الخصوم قد يكونون أصدقاء، وقد يتحول الأصدقاء خصوما، فلا دفة ثابتة فيها، والمغزى! ستبطل تفاسيره كلما كانت القضية ممتدة لأهداف بعيدة..

الحرب الخفية على زغار، كانت شريرة المغزى والغاية والهدف، والعدو مخنث لا يعرف له زوجا ولا حبيبا، كمن يقاتل الظلام في الظلام نفسه..

بقدر أنه يعلم موقع الضربة في قلبه، بقدر أنه عازم بالأخذ بقرار قد مضى فيه، وفي قرارته أراد أن يرجع له المدينون بدينه، دين الحياة لا يحتاج أن يدفع، إلا بقدر هذه المحنة..

الرئيس بومدين قد وفى بدينه، ووقف مع صديق دربه، رغم اهتزاز وتر المحبة وتمزقه، رغم غضب بومدين من العزيز كازا، والتي نجح فيه الخصوم والأعداء، بتأجيج شعلته الرقيقة..

لتصبح فراقا موجعا بحق..

الليل ما اضطجعه، والنهار ما استيقظ فيه إلا مفكرا ومهموما، ما كشف عن حزنه لأحد، قلب كازا الصنديد، قلب قد جرحوه بقنابل موقوتة، كلما انفجرت إحداها، كلما أمسك قامته، وانتصب كجبل الأوراس، شامخا لا يأبه ولا يرى الحواف... لا يبالي إلا بالقمم.

لملم جراحه بخفية، فلم تر من تقاسيمه إلا مكابرة وكبرياء، فالعدو الذي يراه، والخصوم التي تنتظر سقطته، بعيد عليها هذا المنال.

دونيز ماشينو كان ابن موريس ماشينو، ولكن الحقيقة أنه كان ابن فرنسا بامتياز، ابنها الذي استطاع التغلغل لثغرة غفل عنها كازا ، ودفع ثمن ذلك ضررا كبيرا في حياته، وبقدر أن دليلة كانت موقنة بحب دونيز ومؤمنة به ومستعدة لجر العالم كله وراءها، بقدر أنها كانت ضحية ماشينو قبل أي أحد آخر، كلام الحب والغرام، عالمها الذي رسمه فوق الغيم كانت سقطته عالية..محطمة... مؤلمة وقاتلة، بل ذبحت شرايين فؤادها وأوردته..

المرأة ذات قلب حريري، عندما تحب ينطلق داخلها كون مخلوق من النغم، الشموس فيه قبلات من الحبيب، والنجوم كلمات غرام، والكواكب فيه لحظات حلم وسكنى وأمان..

لا يعلم الرجل كم أن هذا القلب يشبه الفردوس، لعنة الخروج منه كانت خيانة واقتراف خطيئة قاسمة، كانت لحظة شيطان، تصيب جمال كونها فيفقد توازنه ويسقط داخلها إلى الأبد..والدموع التي تحرق خدها لن تنساها حتى تموت وتندثر.

وإثر تحركات لمنظمات حقوقية وبشكل كبير ضغطت حكومة كندا على الجزائر لتسليم كازا للقضاء الكندي، ولكن كلام الرئيس بومدين، كان رسالة مفادها المشفر لفرنسا أن كازا بعيد المنال، مادام بومدين على قيد الحياة، ولكنهم أشعلوا الحرب المعلنة الآن، كل العالم قد صوروا له كازا السجان ودونيز الزوج المغرم والضحية المعلنة للعامة، فقد كانت حقيقة مستترة، أنها كانت هي نفسها الجلاد...

منظمات حقوقية، شخصيات عالمية تراسل الرئيس لتسليم دليلة لزوجها، والضغط يمارس بشراسة ونهم وبصورة تشوه الحقيقة العميقة والمستترة عن الجميع.

لتبدأ شخصيات رسمية تحضر إلى الجزائر، بدأت الحفرة تكبر، لتصرح دليلة لوزير العدل الكندي أنها قد حضرت من تلقاء نفسها للجزائر، وأن الأمر محض تهويل لمشكلة صغيرة لا تريد أن تخلطها بالسياسة وخلفياتها..

لكن دونيز لم يهدأ، ولم تهدأ باريس معه، لتشارك شخصيات فرنسية عالية المستوى، وتتدخل في فرض معتقدات جميلة تختفي وراءها السموم العزاف لكازا..

الكاتبة الفرنسية سيمون دي بفوار، والفيلسوف جون بول سارتر والمؤرخ مكسيم رودينسون

ثم الوزير الأول الكندي بيار أليوت، يصرح أنه يعارض اختطاف دليلة ويطالب بإرجاعها لزوجها ماشينو..

وقي 15 جويلية 1978 حضر السيد بلوين الأمين العام للعلاقات الخارجية الكندي للمطالبة باستجواب دليلة من طرف لجنة كندية، والتي قابلها وزير خارجية الجزائر في ذلك الوقت، الوزير عبد العزيز بوتفليقة، عن لسان الرئيس بومدين أنها مجرد مسألة عائلية، لا علاقة للدولة بها..

يعرف ماشينو جيدا مربط فرسه، يعرف كيف يجعل فؤاد دليلة بين يديه، كعجينة طرية يشكلها كيفما يريد، سيطر عليها حبه واستفحل في مكامن الروح، وأصبح قلبها خاويا ومعذبا..

فجأة ..عرفت أن دونيز غير اسمه ليصبح دليل، دخوله للإسلام كان يلاعب به كازا، ويسد عليه كل منطق يكلم أخته به، كانت في عذاب، ومسعود في محنة وعذاب آخر يكابره بكل استماتة...

والحب الذي يشهر به دليل ماشينو، كان تحديا لكازا قبل كل شيء، الممنوع المرغوب، المبدأ المحرم، الذي يغري قلوب السفهاء فقط...

وفي موريال من عام 1978 وبالضبط في 17 أوت نظم ماشينو مسيرة حاشدة، تطالب بعودة دليلة لكندا ولأحضانه الكاذبة...

بقدر هذه المساومات، بقدر كبرياء كازا، التي كانت صلبة كالفولاذ، رغم المطارق والنار والماء، بقدر تمسكه بمبادئه والتي لن يحيد عنها..

أما عذاب دليلة، فكانت السهام المسمومة على قلبها المحترق، قلبها محطم بل مهترئ، ودموعها حارقات حارقات...بصيرة قد أعماها الغرام، فلا تبصر غير دليل ماشينو ليختفي الأخ المعذب والأم المحترق قلبها، والوطن الذي لم تدرك دليلة أنه قبل قلبها هي..

مرت الأيام، كانت تعيش بفؤاد أصبح خاويا، كل الوجوه هي دونيز، كل الأصوات الجميلة هي أنغام دونيز، لا طعام ولا شراب إلا أثرى دموع نوارة وهي تستجديها للحفاظ على الرمق الأخير.

لقد تملكها ماشينو لتصبح ممسوسة به، فلا طائل لكل كلمات العزاء عليها، لأن الموت والشقاء في نظرها، هو الفراق الذي رسمه شقيقها كازا برعاية كل عائلتها..

لعنة دونيز، جارفة وقوية وخبيثة، لأنها حطمت أقرب وأغلى الأحباب لمسعود، الجرم وقع عليه وقد رسموه مجرما، والظلم قد تكون صورته غير الحقيقة، فيبيت الظالم مظلوما والمظلوم سفاحا تجرأ على تفريق حبيبين مولعين وزوجين مخلصين...

لم تكتف بالبقاء حزينة، لم تتقبل أمرا فرض عليها بمنطق لا تعترف به، المؤامرة هي ما حيكت ضدها بيد أحبابها، وليست ما يقوله مسعود، في نظرها أنه مهووس بخرافات التجسس والمؤامرة، أنه الديكتاتور الذي سيقضي على كل من يعترضه، كالطوفان الجارف الذي لا يعترف بالصخور ولا الجبال..ولا الأحمال الخفيفات أو الثقال..إنه كازا السيل الجارف والعظيم.

وبدأ قلب دليلة لا يطيق صبرا، في جنح من الظلام رحلت تقتفي أثره، استطاعت بعد معركة طويلة ومرهقة الوصول إليه، شغف لأحضان زوجها دونيز، لا ينطفئ والسكينة تلتف بين ذراعيه فقط..

هل تعرفون معنى الشوق؟ عندما يطوق قلبك لشخص تعشقه، وأنت أسير للظروف المستحيلة؟ حيث العذاب والغضب والتحدي ثم الجنون..

عندما تلتهب نبضاتك وتستعر قراراتك وأنت مقيد المعصمين، مثقل بالغياب وقلة الحيلة؟

هي..كانت كذلك مشاعرها صادقة وبريئة، لا تعلم أن دليل ماشينو قد تزوج صديقته، أنه كان عشقا هستيريا من طرف واحد، كان يثار بفعل السياسة وحقدها وثأرها الملعون..

قلبها تحطم للأبد، سكنت فجأة ...رجعت لها ذكريات ماضية، وربما البصيرة التي غابت بلعنة دونيز...

ولكن بعد ماذا؟ بعدما انتقمت هي الأخرى من أخ كان قد رأى الحقيقة الموجعة، بعدما صرحت من الولايات المتحدة الأمريكية، لوسائل الاعلام الكندية، أن كازا هو السجان، وأنها ضحية قسوة مسعود!

الحبيب! لا يعشق غير المحبوب، فيذكره كل حين، يلمس وجهه في كل حلم وكل أمنية، فكيف لهم أن يخونوا؟ يغيرون مجلسه ومكانه ولحافه وسريره، وحتى مقاطع صوره وذكرياته؟

فهل هذا عاشق؟ أم عابر طريق؟

لم يعشقك يا دليلة، بل كان ممثلا بارعا ألفت له باريس فصولها، والهرب الأخير كان الموت الأخير، فالقلب المفطور ضعيف لا نبض فيه، مختطف ومقتول ومنبوذ حتى من الذات نفسها..

تذكرت السراب الذي بنت عليه وهمها، تنفست جيدا، فتعثرت أنفاسها مع الوجع، الوحدة، والضعف...

مسحت الدمع المسكوب الذي ذكرها بأخ نفته بعيدا في غياهب التحدي والظلم والعناد.

فكيف لغفران النفس، أن يجد لها ملاذا وأعذارا؟

وداعا يا رئيسي.

الجزائر27 ديسمبر 1978

المجد والنفوذ والسلطة، في منطق السياسة، مثل منطق قانون الغاب، البقاء فيه للأقوى فقط، والأقوياء فيها أيضا كالبيادق تتحرك فوق لوحة الشطرنج، من يد عليا، يتداول عليها كلما تغير اللاعبون.

لا مأمن لها ولا جانب، لا يعرف لها عدو واحد، ولا صديق بذاته..

وفي وسط هرجها وأضوائها، قد تكون يوما عملاقا فيها، ثم قد تكون الضعيف في اللحظة التالية، ليتبرأ الجميع منك، سواء كنت ظالما أو مظلوما! بطلا أم صعلوكا! لا حقيقة غير الخفاء المتقلب الذي يكتنف عالمها، فلا عدو ولا خصم ولا صديق...والمصالح المعقدة فيها هي الوحيدة التي تتحكم في زمامها الهائج ...عالم خفي وخطير ومبهم يموج فيه العائمون دون طوق للنجاة..

الرئيس كان مريضا، وبومدين هو جدار زغار وسنده ويده التي امتدت له، كلما احتاجها، كما كان هو كذلك دائما.

الصديق الصدوق، نعمة لا تحصل كثيرا على هذه الأرض، ما يشاع داخلها، سوى مصالح ومقاصد هي الأخرى، تغلف اسمها البعيد عن تفسير الكثيرين لها..

بومدين قبل أن يكون رئيس الدولة الجزائرية، كان صديقه وأخاه وخله، كان رفيق دربه وسنده ووتد روحه، فكيف له أن يفقده؟ كيف سيكمل طريقه الذي سيصبح موحشا ومخيفا؟

ولكنها سنة الحياة، التي لا مفر له منها، مصيرنا النهائي والمحتوم، لا يفرق بين ملك أو رئيس أو غني أو مسكين...الجميع سينتهون دون شك.

موت بومدين قسم ظهر مسعود، وفي الخفاء والعمق والظل كان ينسج في الدهاليز، نسيج تباركه باريس وترضاه، في الخفاء وأثناء انشغال الجميع بمرض الرئيس، تغلغلت الأفعى مجددا لجحرها، وهيأت صغارها لاستلام زمام الأمور.

باهظ هذا الثمن، موت الرئيس بومدين عصف بالحياة لكازا، وجعله دون سند، مكشوف الصدر للرصاص والسهام والأعداء، كل كان يرمي قصفه وينتقم لباريس...

ويوم مات صديقه بومدين، ابتدأت أحزان كازا الكبرى، ابتدأت محنته التي خطها أزلام فرنسا، بإحساس بارد كالثلج، مسموم كالسم..

حال الأبطال دائما صراع نهائي مع الغدر، يقتلون في أول فرصة ضعف، في خطط سوداء وخفية، تنسجها قوى الشر والظلم، فبرعت في مؤامراتها منذ أول الخليقة..

القاتل والمقتول..الظالم والمظلوم...المنتصر والمهزوم، مساواة أبدية لا عدالة إنسانية فيها سوى تبرؤ عدالة التاريخ، لتكتب الحقيقة وإن كتمها الجاحدون.

على قبره، تبعثرت مشاعره وذكرياته، وتكدس الحزن العميق على أخ لم تلده أمه، لمس التراب فاختلطت العبرات بالثرى، عذاب يتركه المبعدون عنا، نحو السماء و داخل الأرض، يتركون آثارهم متكلمة، عطورهم تحتضننا لنذوب من صهد لا نلمس منه غير العذاب..

لا حيلة له.. فعقله العبقري لا يستطيع التخلص من الموت، لا قوة يمتلكها أي ساحر وأي عفريت وأي سلطان وأي قوي على الموت، إذا حل فالتشبث بالحياة عبث مهدور..

أما الخطأ الباهظ، أننا ننسى في أحزاننا العميقة، أبوابنا مفتوحة، ليقتحمها المتلصصون دون إذن، فيفتشون عن أسرارنا ونقاط ضعفنا، ويغرزون أنيابهم وأظافرهم دون رحمة..

حالة الحزن والعذاب والدموع التي عاشها كازا، عاشها لأن رفيق دربه قد غادر الحياة دون رجعة، وفي قرارة نفسه، كان يعلم أنه سيفقد سندا لن يعوضه أي شيء آخر على هذه الأرض..

وبدأت المؤامرات والحقيقة التاريخية الرهيبة، والتي بات فيها الوطن كمثل مسعود تماما، يخطط له منهجا آخر وشكلا مستمدا من مناهج فرنسا، زرعت بيضها في كل شيء، جنرالات يعشقونها وتتلمذوا على يديها، مناصب عالية المستوى، يميلون كل الميل لها، والعروق امتدت وامتدت وصففت ونظمت في لحظات مرض الرئيس بومدين، وتم تنفيذها فور موته...

كان كازا يميل لكل صديق لصديقه، في ذلك الوقت كان الوزير الشاب بوتفليقة أهم مرشح لكازا، ولكنه دون أن يعلم أو يدري، اصطف الأعداء والخصوم في شكل أصدقاء حوله، بادلوه بكلام منافق ومنمق، وداخلية مليئة بالضغينة والحقد..أمكنة الأصدقاء

في جنيف وفي حديث كان عاديا بالنسبة لكازا مع بلهوشات، عن من يخلف الرئيس الراحل، تكلم بعفوية ودون شك، في خلافة وزير الخارجية عبد العزيز بوتفليقة لمنصبه، وما هو إلا بعض من الأيام، حتى وصل التقرير الذي لم يحسب له البطل كازا حسابا، حملت أخبار الشؤم للشاذلي بن جديد، قد

وصلته طازجة كما هي ولكن بلهجة أخرى، كمن يخبرك عن سؤال صديق بصيغة الاحتقار..

فأصبح قلب الشاذلي أسودا على مسعود، واحتقنت صورته لديه، فباتت مشوهة ومحترقة، خصم جديد ولد من رحم الكذب واللعب والتخطيط...

من رئيس يفتح بيته وقلبه لكازا، لرئيس جديد يغلق كل الأبواب ويوصدها في وجهه، وبدأت أول مراحل انتهاء سلطة كازا في قصر المرادية..

هل يهدأ الحاقدون؟ هل يستوي قلب ملغم بالثأر بفؤاد مليء بالوطن؟ لا وزن لهذا بهذا، غير أنه في منطق الساسة والسياسة الاثنان، يقدران بوزن القوي والأقوى، والخذلان ليس بيد القدر تصفيته، واللعبة الوقحة على العدالة والوطنية هي الفاصل والحكم، في معركة يفصلها نهائيا التاريخ الجبار..فهل من قوة تحيط كازا الآن بعد موت الرئيس؟

لقد كان الخبث في تحليل المكامن والثغرات من اختصاص باريس، تشديد الحصار غير كاف، تجريده من مكانة مستحقة لا يطفئ غليلها، ولربما أن الأوفياء له، هم القوة الكامنة والتي ستستفز بإشارة من الرمز كازا..

أقرب الأوفياء لك، سيعتبره العدو دائما مصدر الخطر، وكلما كنت وحيدا بارد الجوانب والأكتاف، كلما كنت لقمة سهلة المضغ و هيكلا هشا وواهن التحطيم..

مصدر سر كازا، علي مزنان بطل آخر نشأ تحت جناح هذا التنين، حفظ كل مخططاته عن ظهر قلب، وأسر أسراره جميعا داخل أعماقه، فلن يبوح بها ولو قطعوه إربا..

بقدر المؤامرات التي تحاط بمسعود، بقدر أنه حصل على أشياء لن يملكها إلا رجل ولد بعد كل نبوءة ...والصديق الذي يفديك بروحه، أين هو في هذا الزمن الذي لطخه الحساد والسفاء والغادرون؟

الخليل الحقيقي، سيولد من ظروف استثنائية، بقدر حبه لك ووفائك، سيكون هو قلبك والروح الثانية، لكن فاقد الشيء لا يعطيه، أما مالكه فيحتاج الشخص المستحق الذي نفديه بأرواحنا..

الحزن ..أن كازا يفقد كل عزيز بفعل مؤامرات من الداخل والخارج، الرغبة في تحطيمه كبيرة لهذا يتصيدونه دون رحمة، وبحقد دفين لا يظهرونه له.

مشروع القنبلة الذرية..

فيفري 1979

الطبع متجذر في تصرفاتنا، يحدد كيف لرغباتنا أن تكون، ومهما حاولنا أن نغير منه...أن نخفيه تجده يسطع ببريقه حتى في طريقة نظراتنا، يستحيل أن يتغير إلا إذا أردنا الموت..

كازا طبعه غلاب، رجل يبحث باستراتيجيته المتفردة، وعقله العبقري، عن أشياء لا تتاح حتى للنخبة..

صانع لنمط متميز ومختلف يدعى بنمط كازا، مهاراته في تجارة السلاح العالمية، مكنته من الحصول على مشروع القنبلة الذرية، أراد أن تكون الجزائر، دولة نووية وهكذا مشروع قوي، سيرجعه حسب اعتقاده لتحريك الأمور، وحماية بلاده بطريقة قوية يحسب لها ألف حساب، أراد أن يجس النبض أيضا، فتقدم بطلب لمقابلة الرئيس الشاذلي بن جديد، والذي أغلق مجددا هو وكل محيطيه، وأولهم العربي بالخير، الباب أمام وجه مسعود .

الجزائر دولة نووية!

ستعلن فرنسا الحرب مجددا على الجزائر، إن فكرت بهذا، أو لمحت لمجرد التلميح لهكذا مشروع، وبالتالي أصبح كازا مستهدفا لاغتياله في أقرب الآجال ..

كان هذا هو المعنى الوحيد للثأر، للتعذيب ببطء وتجريد الجزائر من بطل ومن قوة يحسب لها كل حساب.

وفي يوم الاثنين، الخامس والعشرين من جوان من عام 1980 كان مأمن سر مسعود على مزنان في رحلة مع كازا، سافر مع عائلة صديقه، و الذي كانت معه زوجة علي، فاطمة الزهراء جيلالي وابنته دليلة مزنان التي ستكون عروسا قريبا، لتسير سيارته من سويسرا نحو فرنسا، كان الطريق عاديا جدا، لا شيء ينبئ بمخططات مرعبة ولا أحداث جديدة، لتدخل سيارة كازا بقيادة صديقه علي الأراضي الفرنسية، مدينة غرنوبل الفاتنة والهادئة، تخفي لمسعود مفاجأة صادمة، فقد استراحت العائلة رفقة كازا في مكان يعتاد الجلوس فيه، ليعرف عبر اتصال هاتفي، كان يظنه عميله المكلف بتسريب أكثر المعلومات والتفاصيل الاستخباراتية، والأسرار الخفية، والحقيقة أنه صديق خفي إنه الشبح الذي كان مستترا حتى على كازا نفسه، ومن خلال مكالمته الهاتفية، عرف أن هناك مخططا لاغتياله في الطريق...

لهذا ترك صديقه وغير طريقه فورا، لتنفذ مؤامرة الاغتيال، بحافلة فجرت صديق كازا وعائلته فتتبخر لأشلاء..

علي مزنان ليس رفيق كازا فقط، إنهما سر بعضهما حتى لآخر الأنفاس، قبل أكثر من عشرين عاما، اعتقلت القوات المغربية علي، وقادته للسجن السحيق، أين تم تعذيبه لشهور، لولا تدخل مسعود واتصاله برئيس الحكومة المؤقتة عباس فرحات ذلك الوقت، وعبد الحفيظ بوصوف والذي تدخل وتوسط لملك المغرب أين أطلق سراحه، كان الوفاء منذ أمد طويل متجذر في ذوات المحبين.

وانتهت حياة علي، في مسرحية مدبرة، فتم بعدها تسريح القاتل وسحب رخصة قيادته لستة أشهر فقط، وكان هذا جزاء فرنسا للقاتل، الذي نسف بطلا وعروسا وزوجة، الصديق الذي يفدي مسعود بحياته، كان ورقة أخرى يسقطها الأعداء من قدره، بتصميم حاقد لا رحمة فيه أبدا..

وبدأ الفصل الثاني في حياة كازا، بدأ غروب الشمس، وتلبد سماء الليل، يطرح أقنعة الأعداء والخصوم للعلن، قوة حقدهم خانقة ومستفزة تحاول الاستلاء على كل شيء في حياته.

في هذه الدنيا الأبطال لا يعيشون طويلا، حياتهم قصيرة ومعظمها في السجون، بيد أن الظلم طريقه المليئة بالقسوة والحيلة والخبث، لا بد لها أن تنقضي وتأفل وإن كانت موجعة ومؤلمة..

بعد موت صديقه الرئيس بومدين، وخلف أبواب قصر المرادية، كانت طبخة مسمومة تطبخ، ضباط فرنسا تهيأوا للاستلاء على كل شيء، تعطش للسلطة والنفوذ والمناصب، استعداد تام وبالإجماع للتمهيد لتغلغل الباريسي المعلن، استبعد كل فلول نظام بومدين الذي أزاح فرنسا من الجزائر، ولكن وبين قوسين كانت إزاحة كازا لأسباب أخرى، أعمقها الحسد والحقد من شخصية لن يستطيع أحد منهم مجاراتها، والتحكم فيها..

استدرج مسعود، شيئا فشيئا فصيغت له مؤامرة سخيفة كسخافة عقولهم، ولكنها بأيديهم وقراراتهم ستنفذ دون شك..

العربي بالخير كان المتهم الأول، لصياغة هذه المؤامرة ووضعها طازجة للتنفيذ، بالرغم من زيارته المتكررة قد دبر كل شيء بليل، البطل والتنين أصبح مطعونا في الظهر، مصير لم يقع في ذهنه ولو لوهلة واحدة، ولكنه كان كذلك يا مسعود..

قبل سجنه بأسابيع، أبلغه ابنه نور الدين وهو في جنيف، أن القيادة العليا تود اعتقاله فور قدومه للجزائر، ابتسم مستهزئا.

-لم سيفعلون هذا بي؟ لا يمكن أن يحدث هذا وأنا من صنعت الثورة، ولا زلت أخدم وطني، ولا زلت أموت لأجله،

ولا زلت أعطيه من مالي ومن دمي ومن روحي.. فليفعلوا ما يريدون! لست من الذين يهربون ...لا زلت في نظر نفسي كازا .

كل التحذيرات من الأصدقاء، من أوفيائه القلائل الباقون، لم يصغ لها مسعود، الذي يوجد داخله وطن حقيقي، البطل لا يأبه للمخاطر، فهو البطل والموت ...ما الموت! بالنسبة لكازا غير قطرة على بحر، فقد اختبره كل لحظة من حياته، في عرض البحر، يوم سافر لباريس ليرى عفريتها، يوم سجن في سجون فرنسا البائسة، يوم هرب السلاح في حافلة البرلينغو، يوم صنع مصنعا للبازوكا والقنابل في كازا بلانكا، ويوم....ويوم....أي خطر يتكلم عليه نور الدين؟ وأي هرب يتحدث عنه أحبابي؟ صانع الانتصار ..والرمز...والبطل ..لن يهرب من البؤساء..لن يهرب فهذا محال.

ودخل الجزائر رافعا رأسه، لا يأبه للمجهول الذي يتحرك صوبه، لا يحفل بأشخاص بالنسبة له لم يصنعوا تاريخ الجزائر، ومجدها التليد، وتنينها النائم الذي إذا أيقظوه، نفث نيرانه دون حد.

ولكنّ المتآمرين عليه، أتموا خطتهم وصاغوها، وحدد يوم التنفيذ بتاريخ الثامن من جانفي 1983.

ليلة الاعتقال...

البصيرة سلطان حكيم، على مرمى خطوة واحدة من قراراتنا، تكون هي الموجه المدهش، والحل الذي يفتح أمامنا أبواب الصواب والنجاح.

العقدة فيمن لا يملكونها، سيغدون عاجزين، مرهونة قراراتهم بالحظ أو الفشل، لا وجهة ثالثة تفتكها أمانيهم.

وأحيانا...بالرغم من بصيرتنا ورغم علمنا بنتيجة قراراتنا المحتومة، سنسير صوب الطريق، مقتنعين أن الكرامة والكبرياء والحقيقة أهم بكثير، من سنة الموت والحياة...وهذا العذاب والحزن، ثمن يدفعه الأبطال كضريبة في هذا العالم الصغير والمضطرب.

قصر كازا الكبير، والمليء بعائلته، المليء أيضا بتحفه المختزنة بينها ذكريات الثورة والبطولة، كان كل زواره وضيوفه، يرون قطع السلاح البسيطة التي صنعها بنفسه، والتي مول بها الثوار والمجاهدين وصنعها بقلبه بشغفه بإخلاصه وبعبقريته المدهشة، مسجات في متحفه الزجاجي الصغير .

يضعها كتحف في منزله، ليصبح مصدر فخره واعتزازه، وأول تهمة ستقوده لغياهب السجون.

وفجأة...تحققت تحذيرات الجميع، واصطفت مجموعة من السيارات السوداء، مقابل قصره، وفي أقل من دقيقة دخلت القوات العسكرية، دون حاجز من أحد أحاطوه يريدونه دون بد .

دخل بعضهم يفتش منزل كازا، كان قويا وصامدا، وعندما أمروه بالخروج معهم، طلب أن يهاتف شخصا ما..

لقد هاتف العدو الذي يحمل وجه الصديق، آمن مسعود جانب العربي بالخير، كان يظن أنه يقدر بطولته، ويعرف أنه رجل لا يخون وطنا صنع ثورته في صمت، وفداه بكل غال وكل نفيس، هؤلاء هم أخطر الأعداء، العدو الذي يبتسم لك ويزورك في مرضك وفرحك، ويأكل من طعامك، ويضمر لك حقدا دفينا ومستترا، سيكون هذا هو العدو اللدود، والذي هو أخبث من إبليس وكل شيطان رجيم..

كان قد أخبره كازا بحاله، فطمأنه بأن يذهب معهم، لأنه سيعود فورا وما هي إلا إجراءات ستنتهي في هنيهات قليلة..ولم يدرك أنه هو نفسه، مدبر كل مكيدة وعذاب وألم .

نظر لوالدته نوارة، الخوف الذي سكن أحداقها على عزيزها، ظهر على قسماتها لمسعود فاحتضنها، قبلها وطلب منها أن لا تخاف، سيرجع قريبا للمنزل، لتكون أم البطل بطلة هي

الأخرى، أمسكت يده التي تنسل من يدها وهو ذاهب بعيدا نحو المجهول معهم، لتطلب منه أن يلتزم بشجاعته التي لا تفارق روح كازا..

واختفى بهدوء...استتر راحلا بين سياراتهم السوداء ولكنهم ما اكتفوا بذلك، لقد قلبوا منزل مسعود، رأسا على عقب، وصادروا كل أمواله الموجودة في منزله، وكل الوثائق التي تمكنوا من الحصول عليها، ثم أنهم أخذوا أسلحته التذكارية من أيام الثورة، أسلحة مجردة من أي خطر، سوى أنها تحفه الثمينة التي أخذها من زمنه المقدس..

لتلفق له تهمة الخيانة العظمى، وتهديد الاقتصاد الوطني والتخابر مع جهات أجنبية، وامتلاك أسلحة وعملة صعبة.

تهم فارغة الأصل ولا يقترن أي جزء منها ولو كان متناهي الصغر بالحقيقة، لقد كان فخا ومؤامرة يريدون تجسيدها، لتشويه صورة البطل، الذي لم يشهد له العالم مثيلا، شخصية نادرة الوجود وعبقرية مخلصة لقيمها ووطنها بالحياة والمال والأهل..

التقنية في تحطيم الأبطال، قبل قتلهم هي الفتك الشديد بسمعتهم وصورتهم بأي شكل، النهج الأسود في تدمير من صنع في الخفاء، نجاح الثورة الجزائرية دون شك. والذي مولها

بأكثر من ثمانين بالمئة من السلاح، وكتب بصوت الرصاص، الذي صنعه بيده، وجلبه بعبقريته من الولايات المتحدة الأمريكية، لتشق عباب المحيط، ويصرع ثوار الجزائر، انتصارا من قمم الجبال وكهوفها ومغاراتها وبردها وحرها..فهل هذا هو الجزاء؟ ويا أسفاه عليك أيها البطل كازا...

اختفى مسعود في رحلة وصفحة ستكون سوداء، يعيش فيها بعد أربعين عاما من العطاء للوطن دون حساب ودون من منه، ليلة من الاعتقال ليزج في سجن البليدة العسكري.

وعمره اثنان وخمسون عاما، كل يوم منها أحداث تتجاوز العقل نفسه، أسطورته التي ستبقى رغم الجحود والتشويه والحفر على الماء، فلن يرضخ التاريخ إلا لوضع كل أحد في مكانه الصحيح.

اعتقال ممنهج ومدبر، ومكيدة استدرج فيها كازا، حيث استدعي للعمل في مكتبه مع العربي بالخير، كما كان وقت بومدين، ليس لشيء... بل لكي ترسم الخديعة بشكل يطابق الصورة والواقع..

المخادعون في صور الأخيار، يرتبون لكل صغيرة وكبيرة ويحسبون لها الوزن والمثقال، كان ذلك لتجسد تهمة تركيب أجهزة للتنصت على شخصيات رفيعة المستوى، شخصيات

ديبلوماسية ليست ممن يحفل بها مسعود، أو تهمه في شيء، لأن العربي بالخير كان في نظر كازا وحتى اللحظات الأخيرة من اعتقاله، صديقا يلجأ إليه.

وخضع منزله للمراقبة اللصيقة، ولا أحد على الإطلاق، كان يعرف مكانه أو يعرف مصيره الذي يواجهه....

نوارة قلبها لم يعد يحتمل، الخوف على عزيزها يقتنص النوم من جفنيها طيلة شهر، أصبحت خاوية وفؤادها الخواء بحد ذاته، دموعها ودعواتها لا تغيب، شوق الأم والخوف يمزق روحها قبل نبضها.

انتظرت وعندما طال انتظارها، لم تعد تطيق صبرا، جلست أمام الهاتف، واتصلت بكل أولئك الأصدقاء، الذين كانوا بالأمس القريب، ينمقون كلامهم قبل الحديث معه، ويتمنون أن يجالسهم ولو للحظة من الزمن، وكلهم لا أحد يرد، لا أحد يسأل عن كازا حتى، كلهم كان يرن الهاتف دون جدوى..

زاد ألمها وجرحت هذه الظروف كل كبريائها وما استسلمت، أرادت أن تناضل رغم كبرها ومرضها، لأجل ابنها وعزيزها وبطلها وبقي الشخص الوحيد الذي يمكن ولو كأمل ليستجيب لرجاء والدة معذبة...

راسلت رئيس الجمهورية الشاذلي بن جديد، أخبرته في رسالتها وبثت له عذابها وحزنها، ولكن لا صوت يسمع غير ما يريدون..

لا تحالف إذن ولا صفقة، لا وفاء ولا أمان، عندما تسقط المنارة، التي كانت تنير في ظلماء البحار، يعيبها الجميع وتصبح منارة شؤم، وما الشؤم إلا شؤم ذواتهم وجبنهم وفرارهم من كلمة حق تقال وتذكر..

وفي السجن..

الضيق ...السقوط...وما بعد الخيانة، ستكشف لها سر ذوات البشر، في لحظات الضعف الحقيقية دون شك ستعرف معادن الناس، وستفهم أن التخلي والجبن وكفر النعم، جبل عليه الكثيرون إلا الشرفاء..

ما الحياة إلا أقصوصة كالموج! تتلاطم بين علو شامخ كالجبال، وأخرى بقدر وسائدنا المريحة، وما الحياة إلا حكمة تعلمنا الصواب من الخطأ، أو الخطأ من نفس الصواب...

هل نأمنها؟ نأمن من؟..فهي لا أمان فيها بهم، بأولئك الجاحدين الذين سيتلصصون علينا وقد رسموا على وجوههم بسمة صفراء، ويوم نضعف....سيبتسمون فرحا ويتمتعون بوجعنا بكل المكر...

فعذاب النفس أقسى من عذاب الأجساد، الأبطال الذين تكسرهم الضباع، رغم استبسالهم وشجاعتهم، إلا أنهم يكابرون، فستنزف أرواحهم صراخا، عندما ينعتون بالخيانة وهم الأوفياء، وبالغدر وهم الرجال، وبالحقارة وهم القمم، سينزفون...

عذاب كازا، كانوا لا يهدأون إلا بمناداته بالخوان، بالغدار....بل وأقبح وأقبح...

وفي السجن، عرف من معه ومن ضده، لأن المساومات بدأت تنهال عليه، ضروب من العروض التي تنهشه وتجعله دون حق في امبراطورية، صنعها بعرق جبينه وعبقرية التاجر السياسي، الفنادق الموزعة في إسبانيا وأمريكا وجنيف وفروع كثيرة في العالم....الحسابات البنكية التي احتوت على عملات صعبة لا تحرقها النيران...القصور الأملاك..كلها وجميعا تعرضت للمساومة، ولكنه لم يعبأ، كان كازا إنسانا صنع ماله ولم يصنعه المال، كان بطلا تنوعت البطولة فيه، فلم يهتم...أخبرهم أنه سيسلمهم كل أمواله، وكل فنادقه مقابل شيء واحد، نذر حياته له، الحرية التي يراها الثوري والبطل، لا ثمن لها أبدا ولا مقايضة.

محال...محال أن يحزن مسعود على ثروة ستخلصه من الضباع المتعطشة ، للسلطة والنفوذ والثروة والمال. بقدر تعطش اللصوص لها بقدر شوق كازا للحرية والتي هي من حقه، اغتصبها الناكرون حقدا وحسدا، ورغبة في رؤية الامبراطور مذلولا ومقهورا.

سجن البليدة العسكري، دخله مسعود وهو مريض، حزنه وعذابه وضعفه وانكساره ...البطل، جرح يدمي الكبرياء بطعنات متلاحقة، والمؤامرة كانت بتخطيط باريس، لينفذها طلبتها وتلامذتها بالحرف الواحد..

فجردوه من ثروته، وعذبوا نفسه دون وجه حق، أدخلوه في حرب وضغوط نفسية، وضعوا له صور عائلته... أعراسهم...صوره مع أشخاص لن يحلموا هم برؤيتهم، ثم سخروا منه، في نعته بالخائن...والضحك باستهتار على مجده المرهون، بين سجنهم ومؤامراتهم.

في كل ليلة عندما يئن الليل داخل أحلامه، يتذكر سجون فرنسا، يوم كانت باردة متصدعة، كان هو دافئا مع إخوة القضية، كان هناك الرفقاء الذين يحلمون بحرية تعانق أجسادهم، بحرية سيدفعون أرواحهم لأجلها.

يوم كان كازا جائعا كان لا يحس بذلك، فالجياع قد استغنوا عن طعام المحتل، واشتاقوا لأوراق الشجر في الجبال...

رفقاؤه....كلهم قطعوا عنهم السبيل، منهم من استشهد والمتبقون منهم اغتالوهم واحدا وراء الآخر..ليبقى وحيدا منكسرا ....الانكسار ما أمره! وإن كنت بريئا فالحزن عميق..

وبدأ الزمن يتسابق مع الأحداث ...بعد شهر من اعتقاله، تم إعلان ذلك في الجرائد ووسائل الاعلام، وشوهت صورته، لم يحاول أحد قول الحقيقة، لأنه سيبتلع لسانه قبل ذلك، لا حياد فالكل مع الأقوى والأبقى... ولن يبقى أحد، سوى التاريخ الذي سيذكر الجميع بما صنعت أياديهم.

المؤامرة نفذت سريعا، ضربة واحدة أرادوها للاستمتاع بانكساره، دون أن يعرف أحد من الشخصيات السياسية بخبر اعتقاله، رئيس المخابرات الجزائرية آنذاك لكحل بالعياط لم يعرف بتنفيذ هذا المخطط، الذي أسر أنه يخاف على كازا من الاغتيال أو الأذية الشديدة..

بات في نظرهم السجن أفضل حل، لإرادة قبيحة ومظلمة، ولكن بدأ محاموه في التحرك، فالقضية لا أساس لها من الصحة، رغم قوة الخصم الشديدة، رغم ذلك تحركت العدالة تريد استرجاع مكانتها...رغم الند العنيد.

صهره حميدي خوجة، يحاول استرجاع صديقه، بدأ يزوره في السجن هو ومحاموه الأربعة، ليروه نحيلا مريضا ومنهوش الكبرياء، أخبرهم بكل شيء ، بالمساومات بالعذاب بالمهانة بالألم الذي سيفتك بقلبه..

وسافر حميدي إلى جنيف، لإكمال بعض الأعمال العالقة هناك ليلتقي بجاكلين شواريز، التي تركت لحميدي مستندا فوق المكتب، نظر له مستغربا، وعندما فتحه وجد مفاجأة حقيقية، إنها ....إنها..

جاكلين شواريز الحب المستتر.

قبل سبعة عشر عاما..

جنيف 1966..

البطولة ليست دائما مغامرة تسرق من التاريخ، البطولة قد تكون تضحيات لا يستطيبها قلب متيم ومليء بالغرام، بل إنها قد تكون الطاقة الكبيرة التي تجرها جحافل من الإرادة، والتي لا يمكنها أن تلين رغبة القرب بين خطى خطرة، مقابل حياة أسعد وأأمن للحبيب.

وصفة كالدواء المر، كالمعادلة المعقدة والصعبة، والتي تحوي حلا وحيدا، لا يمكن لغير عباقرة الذات، أن تنال من حله المعذب...تحليل قد يشرذم حلاوة الحياة، وصبرا يقسم الفؤاد قطعا مقطوعة..ورغم ذلك، تجده البعيد القريب.. والقريب البعيد، في سبيل النجاة، ونجاة المحبوب لا تقدر بثمن عند هذا البطل، حتى لو كانت طريقا على الجمر للوصول لبر السعادة..

كازا المغرم النجيد، استطاع أن يخبئ سره دفينا، ولا أحد مهما كان مقربا سيدركه أو يعرفه..

وفي ذات يوم من عام 1966 وفي غمرة الأعمال والمال والسياسة، أطلت عليه، كانت ..في البداية وفي اللحظات الأولى، مجرد امرأة جميلة جدا، نجمة شقراء ساحرة العينين، يسطع منهما

بريق أخّاذ، يجتذب كل انتباه وتركيز.. بالرغم من أن الصورة كانت تصور لقاء بين اثنين، ولا شيء يدعو لانجذاب ساحر، يدخل القلب ..في روعة الحب وبعثرته..

لا شيء ...ولكن كان هذا عندما مضت الثلاثون ثانية الأولى فقط.. وكانت تلك الثلاثون.. هي العد العكسي لحب قوي يخفيه الاثنان سرا، لتقع بعدها البلبلة في فؤاد جاكلين...تسمرت نبضاتها تحاول أن تفهم ما يحدث، أن تدرك كيف لهذا الشخص البسيط الملامح، القصير القامة، أن يجعلها ساكنة ولا تستطيع أن تتحرك خطوة واحدة بعيدة عنه...!

حاولت إخفاء ذلك حتى على نفسها، تنفست عميقا حيث كان كازا يلقي بحديثه المضطر ناحية الشخصيات الهامة المجتمعة، ولكنها بقيت ثابتة في مكانها، بعض من كلماته الساحرة التي تدخل عميقا حيث المهجة، جعلها تحس برجل عملاق أمامها، مختلف يأخذها إلى البعيد حيث عالم كازا المدهش.. إنها حاجة الأنثى المستترة والغريزية لرجل صادق وبطل حقيقي، حاجة تدخل قلبها حيث لا يوجد مخرج من هذا السحر والأماني التي تنحني للود..للإعجاب القوي..لجاذبية تشدها نحو التحليق في بعد مدهش..

أدركت بذكائها أنها أمام ذات.. وروح استثنائية، أمام إنسان استولت عليه الكثير من الجماليات وسيئة واحدة..رغم أنها في علم الإله هي حسنة وثناء وقلب طاهر..

فلقد كانت النية الطيبة، هي نفسها نقطة ضعف كازا...

جاكلين لم تكن امرأة عادية، كانت داهية...فاتنة ...ذكية ...سريعة البديهة...منظمة جدا حذرة بشكل رهيب...تمتد علاقاتها لعمق المخابرات العالمية، والبعيدة عن متناول الكثير من الرجال والقادة..

ربما شدها تشابهها مع كازا...العالم الذي يعيشانه، بقدر أنه هجين وثلاثي المحاور، محور المال السياسة والمخابرات العالمية، بقدر أن ثقله رهيب ويحتاج لآلة بشرية مختلفة جدا..

كلاهما من نفس العالم، من ذات في أعماقها حزن يدفنونه بعيدا عن بريق أعينهم، ويحاولون ببسمات متتالية، تفريق كل حدس يكشفهما...

تبادلا الكلمات، كلاهما عرف أنهما الروح المفقودة، في عالم يموج باضطراب لا يرحم، مرة وراء مرة، يكتشفان التشابه العميق والذي لا يمكن أن يجده الجميع في حياة قاسية وبعيدة عن العدالة..

الحب ...قناص للأرواح، قناص لا يخطئ الهدف، وبئست قلوب تجتمع دون روح، بل أجساد تمارس طقوسا مدهشة، والروح منفصلة في عالم يتيه فيه المحبون..

صعب جدا أن يعيش هؤلاء، في هذا العالم المادي والغريزي والذي تحكمه قواعد قاسية وظالمة وبعيدة عن سعادتنا...

تزوج كازا من السيدة فاطمة الجيلالي وهو لم يتجاوز الثالثة عشر، وتزوج في العشرينات من السيدة شميساء، وتزوج حتى بعد أن عرف جاكلين، من السيدة نادية.

ولكن جاكلين هي شيء آخر في حياة كازا، وهو رجل مختلف في حياة جاكلين ..وما المواقف التي تهاجمنا دون سكون، في امتداد هذه الأعمار، ما هي إلا تفسير واضح لمحبة المعلنين عن الحب لنا.....

وما أروع! وأدهش! من موقف كان مستحيلا ليصبح لأجلك واقعا وممكنا وبين يديك..

جنيف...مدينة الجمال والفتنة والتي خلف ثيابها المزركشة، بشمس مدورة ترميك بنور، يخفي ظلام السأم، وخضرة تفتح أمام عينيك ملاذا نحو راحة وسكينة للبال..وخلف ذلك.. مؤتمرات ومعاهدات ولقاءات، مختفية ومستترة عن عيوننا ...خلف ذلك تقبع الفوضى الصامتة دائما..

بدأت الأيام تلقي على قلب جاكلين، مشاعرَ شديدة الوطأة عليها، كل محاولاتها للانسحاب من عالم كازا، يجعلها مرتبكة أكثر ..بل متأكدة أكثر من كل هذه الأحاسيس الجميلة والتي تجعلها تشعر أنها إنسانة معه، بل امرأة تختلف عن كل النساء، عن كل الأميرات والملكات...

ولا أحد...ولا أحد كان يجعلها تشعر، كما يجعلها هو كذلك...لكنها بالرغم من كل إمكانياتها وجمالها وسحرها ...فهي مع مسعود تصبح ذاتا واحدة ...ضعيفة وقوية، لتنغمس في عالم ساكن تعشقه جدا..

أما كازا فبمجرد أن تعرف لجاكلين، عرف بذكائه أنها نصفه الوحيد الذي يفهمه، دون أن يتكلم أو حتى ينظر إليها، تعرفه كما يعرفها، تحس به كما يحس بها، لا يختلفان سوى في كونهما رجل وامرأة...

والتأم جدار الاستكشاف بينهما، تعددت اللقاءات، الكلمات ...الأعمال والعقود ..المشاعر ..الثقة ثم الحب المستتر عن أعين الجميع....ليصبح الذي بين جاكلين شواريز وكازا قصة غرام مدهشة لا يدركها حتى أقرب الأصدقاء اليه..

أخفى مشاعره، أخفت مشاعرها وأصبحت محط كل أسراره....وأصبح محط كل أسرارها..من غير كازا الرهيب

لينسج قصصا للحب والمال والسياسة والشجاعة المجنونة والعبقرية التي خلقت في قلبه الأبيض؟ فمن غيره؟

نجح مسعود في إخفاء حقيقة جاكلين، لم يكن أحد بارعا مثله في تسيير تشابك الأحداث، لكن المقربين يعرفون جيدا أنها تموت لأجله، وستفعل أي شيء ...مهما بلغ جنونه لحمايته وإنقاذه.

لعبت دورا كبيرا في حياته، منذ عرفها لآخر يوم انتهت فيه قصته الغامضة، كلما اشتدت آلامه وقلت حيلته، كلما وجدها وإن كانت بعيدة حيث المسافات الرهيبة عن المحبين، وإن كانت وراء البحار.. وإن كانت وراء القارات، كانت ستفعل كل ما هو متاح للحفاظ على كازا...

جنيف شهدت مسرح الحب ومسرح المهمات الصعبة والمستحيلة، هذه الفرنسية...التي تربت على أرض الولايات المتحدة الأمريكية، وتشبث قلبها وتمسكت روحها بالجزائري رشيد كازا..

مستعدة أن تبيع وتدمر أي شيء، في سبيل نجاته ونجاحه..

وفي وقت يقاس بالمواقف والردود، بالحياة والموت، بالسكينة والفوضى، مقدر بشهور قليلة من عام 1966 بالذات منذ يوم الالتقاء، حددت الحياة ومشاكلها حقيقة جاكلين، في ذاك الوقت

طفت قضية جنيف حيث تدخلت جاكلين ببراعة وبرهنت لكازا كيف أنه يستطيع التوكل عليها، والاعتماد على امرأة استثنائية لا تقف الصعاب في طريق إرادتها..

أزمة جنيف، أدخلت الدولة الجزائرية في مخاطرة كبيرة وضعتها أمام منطق انتهاك الأعراف الدولية، والمرور مباشرة على أرض سويسرا لأخذ العسكريين الثلاث من على أرضها..دون الرجوع إليها

لعبت جاكلين فيها الدور الذي أدخلها قلب كازا للأبد ومنزله أيضا، بل عرفها على الرئيس هواري بومدين نفسه، لتكتب مذكراته في منزل مسعود، بعد محاولة اغتيال الرئيس بومدين مباشرة... وترعرع حب لا يدركه سوى روحيهما، روح كازا وروح جاكلين.

هناك منطق يربط علاقتهما، منطق صعب الفهم، الشيفرة والكيمياء المتفاعلة بينهما لا يمكن تحليلها إلا منهما وبهما هما الاثنان فقط، لهذا كان من المستحيل أن يكتشف أحد مهما كان مقربا الحقيقة الغامضة..

خطة جاكلين..

بعد أربعة عشر عاما..

جنيف1983..

حميدي خوجة صهر مسعود وصديقه ومحاميه، في ذلك اليوم كان خصما للوقت، يقاتل الزمن والأحداث بسرعة منهكة فآخر مقابلة له مع صديق عمره، أخبره أن الوثائق التي تثبت براءته، موجودة جميعها لدى جاكلين، أربعون حقيبة كانت جميعها ممتلئة، بأرشيف مدهش للثورة، خزن فيه كازا كل ورقة منه، بل قد تفانى بكل دقة وتنظيم، في ترتيبها وترقيمها وأخيرا إخفاؤها، فصور كل ورقة سقطت في يده..صور طبق الأصل وأخرى أصلية، ثم أبعدها عن جميع الأنظار إلا أنظار شواريز..

سافر خوجة يحمل الكثير من الآمال، هو موقن وواثق جدا، بوجود براءة كازا بين تلك الأوراق المكدسة طيلة ذاك الزمن المقدر بأكثر من ثلاثين سنة، فتوهجت داخل قلبه طمأنينة ثبتت خطاه، و لكنها سرعان ما اختلطت بالخوف على صديق يبقيه دائما في قلبه، كان شعوره قد تمخض من هذا العالم الجديد الذي ظهرت أنيابه قاتلة ومخادعة، التقى حميدي بجاكلين، كانت تسأله بشغف وهي تقدم له كل الأوراق التي تثبت براءة مسعود عنه، وكان هو يجيبها، محاولا قراءة وفرز العديد من الوثائق،

لتخبره.... أن كل شيء موضب ودقيق ولا يحتاج منه للمراجعة، وعندما هم بالرحيل ووضع كل شيء في حقيبته، فاجأته بملف مغلف بورقتين صفراوين..في البداية ظن حميدي أنه ملف كانت قد نسته، ولكنها بذكائها سارعت بالقول:

-هذا الملف يحتوي على شيء آخر، أود منك وأترجاك أن تقرأه الآن..

عندما نظر إليها وجدها قد جلست بهدوء وثبات، بل إن الرائي سيعرف أنها مصممة على شيء ما! شيء عاصف بعد هدوء وصمت..ولكنه كان هو الهدوء المريب...

أذعن إليها ..وقد هتك الفضول رغبته في الخروج، وتدللت عزيمة جاكلين وقوتها ليجلس وقد فتح المغلف الأصفر ...ثم

ما هي إلا لحظات ...حتى تمعن فيها مدهوشا! وقد رفع حاجبيه ووسع عينيه مستغربا، أمام خطة جاكلين، التي لن يستطيع أن يضعها أو ينفذها سوى شواريز.. وذاتها كازا، لم تكن تلك الجميلة والهادئة، وفي ظل تلك الظروف الصعبة على مسعود، إلا أن تكشف عن مخطط درسته ووضعت له كل القواعد التي تضمن نجاح خطة الهرب. والهرب كان من سجن البليدة العسكري، بل وضعت لكل شيء قواعد أساسية وأخرى

احتياطية، فصعق خوجة من كل هذه الدقة والتنظيم ..بل والأشخاص، بل والدول..!

أجل دول وأشخاص سيشاركون جميعا في تهريب النجيد المظلوم، من غياهب سجنه ..نظر لها وابتسم نصف ابتسامة..

-ما هذا يا جاكلين؟

أجابته وقد تآكلها الحزن، وبسرعة ووثوق أجابته:

-كما ترى! إنها خطة لتهريب كازا..

أرجع الملف فوق مكتبه، صمت هنيهة، تنهد من أعماق قلبه الحزين، ثم تدارك ثباته ورزانته، وبصوت رخيم، أخبرها أن الهرب سيجعل كل التهم ثابتة عليه، ليس هذا حلا يمكن أن ينفض عنه غبار كل هذه المحن...ولأنه رجل قانون فلن تستطيع أن تقنع حميدي بهذا، ولكنها في واقع الأمر لم تكن شواريز تريد إقناع حميدي أو تنتظر منه شيئا، بل كانت ترغب بكل جوارحها أن يتقبل كازا خطتها، ويقتنع بما وضعته وجهزت له منذ دخوله أول ليلة للسجن، بعد أن عرفت بذلك..

وبقدر ما أراد أن يقنعها خوجة بضرورة اتباع القانون، بقدر ما كانت هي أيضا تبحث عن سبيل آخر معه، لتقنعه بضرورة أن يوصل ملفها دون كدر لكازا، إنها متأكدة وواثقة أشد الوثوق،

أن الحرب باتت معلنة عليه، وأنهم لن يتركوه إلا محطما، وبالتالي سيتحطم قلبها هي الأخرى..

كانت تتمنى إنقاذ نفسها بمسعود، فلا حياة لها وهو غير موجود، فكيف ستعيش؟ دون ظله الذي تستظل عليه، من جهنم المعارك المستترة، وبؤس تلك الحروب الخفية، والمكائد والدسائس والحلول والخطط؟

إنه رجل لا يكرر كل الوقت، وصدف الحياة لن تزورك مرتين، فإما مسعود... وإما موت وانتحار ينسيها للأبد أفوله.

لطالما كانت جاكلين الفرنسية، على هامش حياته الرسمية، فلم تبد أي اعتراض، بل كانت راضية بذلك ومقتنعة بالقليل من سرد الحب منه، الشيء القليل من كازا نعمة سبغها الله عليها، وأكرمها بها، ولكن.. أن يختفي ويصبح غير موجود! فأي نكهة ستستطيع العيش بها هذه الحياة المسلوبة؟..والتي هو أصلا، كل طعمها وملحها..

الاندفاع الجامح الذي لف جاكلين رغم صوتها الهادئ ، وكل ذاك الانفعال الذي ظهر طاغيا تهيج أمواجه المضطربة، على بحر عينيها الجميلتين، جعل خوجة يطمئنها أنه سينقل له كل خطوات خطتها، وسيبلغها رد عزيزها كازا...

رجع للجزائر محملا بأرشيف للثورة، والثورة التي صنع كازا سلاحها، ووهب لها روحه وعقله وماله، وخاطر دون أن يفكر ولو للحظة .. ولو للحظة واحدة بحياته وبماله ...الثورة التي بذل فيها كازا قصة حياة أسطورية، ولكنها الحقيقة بحذافيرها وذاتها، رغم كل شيء، كان في كل مرة يئن فيها، من ألم المهانة وهو العزيز، كان لازال يقول في نفسه، أن نضاله لن يهدأ حتى يفنى هو، كان لا زال يناديهم إخوتي رغم ما يفعلونه، لا زال يلتمس لهم الأعذار، وهو يعرف أن العقارب لن تفرق بين الأبطال والجرذان..

خوجة. وهو ينظر لصديق عمره في السجن، اعتصر قلبه ألما، كانت عيون صديقه غائرة، ووجهه الذي أصبح نحيلا، باتت تقاسيمه وأساريره مختلفة، مرحه وبشاشته اختفت وغابت بين أطلال الظلم..

ولكنه تلحف بشجاعة، وركز جيدا في طمأنة مسعود، أن المحامين جميعا قد اتفقوا على ثبوت براءته في ظل هذه الحقائق الجديدة التي حملتها ملفات شواريز...

وبعد الكلام ...والحديث، نظر كازا لعيني خوجة التي تخفي كلاما ما...ابتسم مسعود في محيا صديقه، وتمنى عليه البوح...

فسلم له خوجة ملف جاكلين، الذي كان بين كومة من الوثائق، قرأه وتمعن في تلك الخطة المعقدة...

سجن البليدة العسكري كان سيشهد مسرحا من الأحداث التي لن يتوقعها أحد، لقد دخلت فيها شبكة مخابراتية عالمية، كانت أمريكا وليبيا سلسلة من تفاصيل قليلة لخطة جاكلين...الأحداث في الملف كانت مغامرة لا يهابها مسعود، وهو صانع كل تعقيد وغريب ومستحيل.

ولكنه...انتفض غاضبا وعابسا.

-لا يمكن للبريء أن يهرب يا حميدي، البريء ستنصفه العدالة، والتي مهما كان وجهها ستبقى عملة التاريخ ...التي تتبادل بها الأدوار، وتشترى بها الحقيقة من لصوص التاريخ نفسه..

المحنة ليست في السجن يا صديقي، عشت نصف حياتي سجينا قضيتي، المحنة في الحقيقة والتاريخ الذي ستذكره الأجيال جيلا بعد جيل.. فلن أعلم هؤلاء الهرب وأنا من عشت أواجه كل سيء وكل قذر، لن أترك لهم فرصة تمزيقي ميتا كنت ...أو حيا، فلا زال لدي إخوة كفاح... ولا زال كفاحي باقيا مهما زوره الأشقياء.

رفض مسعود خطة جاكلين، رغم أنه يعلم أن الخصم عنيد وقد استقوى بقوى لن يهدأ لها خاطر حتى تراه مقهورا، وقد فقد كل عزيز وكل قوة ورغبة في العطاء والحياة..

فاجتمعوا عليه يتربصون به، يصممون على قتل مناضل أراد حرية وطنه، ورغب أن يكون حرا يحلق دون قفص وأغلال..

ولكن الجبناء، عندما تقف ظلالهم تتسيد عليهم، سيخالون أنفسهم مشعوذين، يخترقون الجدران، ويخفون الوقائع والأحداث، ويتلبسون العدالة فيمحقونها، ولكن ... لا بد لليل من دحور.

العدالة المتبقية.

البريء في ظلمات السجون، سيصبح شغوفا للنور، وسيكره كل شيء تمسه تلك الظلمة، ويظل يحلم بالحرية وإن كانت أحلامه كسيحة وعرجاء، لن يصل بها غالبا لحرية متأملة وصعبة المنال.

فهذه الحياة أحياؤها كثرتهم الظالمون، قلتهم قد استوطنتهم أنوار ووهج العدالة، فصمدوا ضد نواميس الظلم، حتى استشهدوا أمام هذه القوى السليطة والمتوحشة والمعذبة..

أما حروب الظلمة، المعلنة بكساء بريء من دم يوسف، فإنها لا تشفع لنا في شيء، سواء كانت حروبا لنصرة أرواحنا المظلومة، أو للوقوف جانب حقائق حمقاء، لن تجني لنا سوى قاعا من التساؤلات العانسة والعاقر.

وكازا ..طيلة الثلاث سنوات من عمره، وهو داخل السجن ومع سجانيه، كانت تقاتله تلك الحرب الضروس المشتعلة والحزينة والبائسة، بالرغم من ثباته وسكونه وكل انكساره، الذي غير عمقه وروحه، فكان عليه ابتلاء شديد القسوة والوطأة، أما صبره فإنه ذاك الصبر العظيم والصعب، فغياهب السجون للبريء أقسى من موت قد نشر نهايته وأعلنها.

لا يمكن...لا يمكن لأحد منا أن يحس بقدر وبقوة اشتعال ناره، وعواصفه وحزنه وامتعاضه، بالرغم أن الآتي سيكشف الكثير، حتى لو كان يوحي لنا، بأنها النهاية المحتومة والمقدرة.

ففي السر وبين دواخل الكواليس، كانت هناك تلك المعركة الشرسة، التي لم يعرف عنها أي أحد أي شيء أبدا، لقد كان هناك شبح ما، شخص كان يشبه الصديق، والذي يقف بين مواجهتين، يحتل مكانا أوسطا بين الخصم المظلوم... والخصم الظالم، ويحاول إمساك تلك العصا من وسط المكان أيضا، يتمنى التشبث المزعوم بضميره، والذي تتساقط فوقه رجوم التأنيب والألم، ويريد أن يجد مكانا وسط هؤلاء الجدد الذين سيتزعمون الوطن، ويحزمون أسلحتهم لتغيير النظام لصالح قوى أخرى، قوى ستسحق كل ما تبقى من نظام بومدين، بحزم وشدة وتعنت ودون رحمة.. مؤامرة كبيرة على وطن مقدس، مات لأجله كل شيء جميل، كل شيء قوي، أما آخر من بقي من أبطال الثورة، فإنهم يواجهون الظلم والموت وتشويه بطولة بأكملها...إنه الانتقام....الانتقام المرير.

وهناك...

بين الظلال السوداء كان ذلك الشبح المخبأ بين ظل الجميع، فاختفت صورته وأفلت، ليصبح شبحا تساوت حسناته وسيئاته

فهام في برزخ السياسة القذر، ولكن..بقي يحاول إنقاذ البطل من قبضتهم، فاستعمل آخر الأوراق التي تبقت لديه.

إنه الشبح والصديق الخفي الذي يحل عقدة مشددة، لقد كان يدرك جيدا مصير كازا المحزن في ذاك الحين.

ذلك المصير الذي لم يكن يعرف عنه حتى مسعود نفسه شيئا، وأن السجن كان الخيار الثاني والبديل الوحيد، لإرضاء الوحش والعفريت، تضحية طرحها صديق له، كما طرحها أخ يوسف على إخوته قبل آلاف السنين..

الحقيقة...التاريخ...سيكرر نفسه ولكن على أشخاص وأزمنة وأمكنة مختلفة، متصلة أو منفصلة فذاك لا يهم.

لقد تآمروا لقتله فطرح عليهم سجنه وتحطيم روحه وسلب ثروته، ليتخلصوا من نجيد باسل لا يخفت وميض نجمه.

بدا لهم حل يشفي الغليل، فقرروا أجمعين مصيره والتمتع بقهره وسلبه كل ما يملك، دون حق بل ودون رحمة.

وأولئك... هم الأعداء والخصوم، ولكن في جانب بعيد جدا، كان حبل النجاة الممدود دون أن يعرف ذلك ويدركه، ففي الخامس عشر من أفريل من عام 1985، ومن وراء البحر والمحيط تم القرار وانتهى البث فيه، في إطلاق سراح النجيد كازا.

دامت الزيارة أحد عشر يوما من طرف الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد، للولايات المتحدة الأمريكية، وهناك حدث وتحقق قدره، الذي خرج منه بخسائر نفسية مروعة...

في تلك الزيارة، حاول أصدقاء كازا، ومنهم الرئيس رونالد ريغن ونائبه جورج بوش الأب، الاستفسار عن صديقهم مسعود، ليدركوا أنه السجين في وطن، أصبح فيه غريبا ولا حق له في حقه ظلما وعدوانا.

وفي خضم ذلك، وبعد ضغط على الرئيس الجزائري، تم التعجيل بالمحاكمة، والتي انعقدت في سجن البليدة العسكري في السادس والعشرين من سبتمبر من عام 1985 محاموه الست كانوا السيد الهادي صخري، السيد عبد العزيز بن ميلود، السيد عبد الصمد بن عبد الله والسيد عمار بن تومي والسيد الطيب بلولة والسيد أحمد حميدي خوجة، بالرغم أن هذا البريء لا يحتاج لهذه العبثية الممنهجة بحياته وبطولاته كما شاءوا. ولحكم ودفاع لكي يبرئه ..

لقد دخل المحكمة يلبس بذلة رسمية مرتبة وغالية الثمن، وقد حضر في سيارة مرسيدس فاخرة، قد أحضرها له عسكري، أو ...قد يكون صديق الظل الخفي الذي يعتني به من بعيد، ليدخل هادئا وواثقا للمحكمة.

وبدأت تلك المحاكمة التي استهدفت رمزا للتحرر والحرية والبطولة، وقد تم استدعاء الشهود التسع، وهم السادة رئيس المخابرات والأمن الداخلي قاصدي مرباح، والسفير والوزير السابق عبد المجيد أوشيش، وعبد الله شنقريحة، والدكتور ووزير العمل السابق محمد أمير والوزير السابق السعيد آيت مسعودان والعقيد السابق في جيش التحرير سليمان هوفمان، السفير والوزير السابق عبد المجيد علاهم، والسفير والمستشار السابق إسماعيل حمداني والذي شغل منصب رئيس الحكومة الجزائرية عام 1986 والسيد محي الدين عميمور.

في أعماق كازا هناك جنة خضراء، وإن أحاط بها سكان جهنم، وإن أرادوا اقتحامها وتدنيسها، ستبقى الأماكن الجميلة تحتفظ بأريجها ولو بعد عصر من السنين..

وفي تلك المحاكمة، شهد ثمانية من أصل التسعة، شهادات حق لا تقبل الزيف، ولا يحل لها إلا أن تذكر الحقيقة وتاريخ كازا المدهش الذي سيصعب ولربما يستحيل أن تكرره روح أخرى غيره هو.

أحس وهو يستمع لأولئك الذين اختاروا سبيل الحق، ولم يخشوا غير الله، ولم تكابدهم مفاتن الإغراءات والسلطة، وقد همس بهم الهامسون، الذين ينافقون الكراسي ويصفقون للفراغ

والحماقة والخذلان، هناك داهمته مشاعر الغبطة، وعرف أن هناك رجالا صادقوا أنفسهم، ولم يبيعوا شرفهم ولا كرامتهم بأي ثمن..

صرخ كازا...

أنا البريء الذي لن يخون وطنه، وإن مزقوا فؤاده وكسروا ضلوعه، ما أنا بخائن يا سادة، فالجزائر كبدي، فهل نعيش دونها؟

لن تهزموا تاريخي..التاريخ سينصفني... وقولوا لهم، سأموت كما ستموتون، ولكنني سأموت واقفا وستنتهون أنتم من تخونونني كما يموت الخبثاء والجبناء في قعر التاريخ.

كل الشهادات الثمانية التي قدمت في المحكمة كانت قد برأت كازا، وقد سردت الحقيقة ولم تجحف في حقه أبدا...إلا الشخص التاسع فقد أضمر داخله شيئا يعلمه الله وحده، وتدلت من كلماته سموم وترهات...لم يعرف أن البشر ميتون ذاك المصير الوحيد والمحتوم، وأنك ستواجه وحدك فقط، القيم التي غيرتها وبعتها ببعض الشهوات التي تزهر جنباتها وحضرتها، وردا جميلا وفاتنا، ولكن لأريجه وشذاه السموم ..

شهادة عميمور، تكلمت عن استغلال مسعود زغار، لعلاقة الصداقة مع بومدين في تطوير علاقاته مع الولايات المتحدة

الأمريكية، والتي نشأت حولها علاقات غير قانونية أهمها استخدام الرشوة وأموالا كانت غير شرعية...

كان الوحيد من بين التسعة الشهود، من لفق تهما باطلة..وفي الأخير تمت تبرئة كازا البطل.

وفي الرابع من أكتوبر من عام 1985 تم النطق النهائي ببراءة مسعود زغار، والمدعو رشيد كازا، من كل تلك التهم الشنيعة التي لفقت له ظلما وحقدا وانتقاما، وقد أمضى ثلاثة وثلاثين شهرا قضاها يحلم ببراءة من تهم لم يشفع له بياض قلبه بنسيانها، لم يستطع أن يلم شمله مجددا، وقد انحصرت الحياة داخل روحه، وأصبح انتقامهم وشما على قلبه، يذكره ببطولة أحب المفسدون في الأرض، تشويهها ودحرها بين صقيع السجون..

لم يميز كازا بين التاريخ وبين الأعداء، أحس بالخيانة وطعمها كان فضيعا ومحتوما ابتلاعه، طعنة خلف الظهر، وأخرى على القلب، ومن طعنوه كانوا أحبابه بالأمس القريب..

لم يفكر سوى بالبطولة التي كافأها الوطن في شخص سلطة لو علم عمقها، لعرف كيف سيكون مصيره المذل والمميت.

أخلطت روحه مشاهدا أربكته، شتت زغار الذي يتحرك كالضوء، لتنقشع الظلمة الغبار، ليصبح مسكونا بالصمت يسرح بعيدا في مكان لا أحد غيره يعرفه

وأصبح شخصا آخر، عيناه المفعمة بالحياة، تدهورت مآقيها، وتسلل داخلها حزن وانكسار عميق غيره للأبد...

خرج لوالدته نوارة الغالية، ولأهله مدفونا وهو حي، لم يكن السجن ما قتل كازا، لقد كانت الصدمة والمهانة هي من قتلته، ونفذت فيه حكما آخر، كان يشبه البقاء في الجحيم..

أصبح خاليا من الأماني، قلقا تتوحد الأمكنة جميعها في زاوية من غرفته، لا شيء ولا رغبة له في الحياة كلها.

ولم تكتف الأعداء بذلك، كانوا لا يطيقون وجوده على قيد العقل والحياة، فالخوف من استيقاظ تنين كازا يخيفهم وهم الجبناء، يودون لو يلتوون حوله كالأفاعي ويعصرونه عصرا، و رغم ضعفه في تلك المرحلة، كان لا يخاف أبدا ..بل لم يشعر بذلك ولو للحظة واحدة ..تلاشى الجزع قبل أن يولد، فلم يفقه ولم يعرف داخله من طريق...

قبل المحاكمة وطيلة تلك الشهور، والتي كونت عامين وتسعة أشهر داخل سجن البليدة العسكري، كان هناك من يسهر على عذاب مسعود، ليلا ونهارا فلا تبرد همته ولا تنضب.

وعندما حكم القدر ببراءة كازا، جن جنونهم، واستفزت ثائرتهم الحاقدة، وبدأ الانتقام وعجل به، فبعد عشرة أيام من النطق ببراءته، تم إيقاف كل من رئيس المحكمة والقضاة

ووكلاء الجمهورية، بل كل من حضر وساهم وقبل ونطق ببراءة كازا، كان مصيره التوقيف والشطب النهائي دون الرجوع في الحكم أو الطعن فيه...ولأول مرة في تاريخ الجزائر كان سجن البليدة العسكري دون قضاة..

وها قد بدأوا...فبعد مساومته على ثروته داخل السجن، بدأوا يساومونه، خارجه أيضا، حرموه من الراحة والحياة كما كان، وأصبح ما بينهم يشبه اللعبة، التي تسليهم وتعذب كازا.

لا قانون يحميه، فقد أسدلوا على العدالة شراعهم الذي يحركونه كما شاءوا، كانوا الريح العاصفة والملعونة، والخطيئة والذنب الذي لن يغفره لهم أي تاريخ وأي حقيقة وأي شرع أو عقيدة.

بات مهموما وعصبيا وكيف لا؟ والمساومة القذرة على ما تبقى له من أموال، كانت يوميا ودون كلل.

في لحظة أخيرة قرر الذهاب لسويسرا، هناك ربما يستطيع أن يتنفس الصعداء، ويسترجع ولو القليل من طاقته وقوته، ولكنهم قد سلبوا كل وثائقه، لا وثيقة تبرهن على وجوده على هذه الأرض، جواز السفر المفقود، حرم على كازا هو وكل وسيلة تطرحه على شاطئ الأمان.

وبات كل همه الحصول على جواز سفره...كل المعضلة هي الرحيل من وطن عشقه حتى الموت، فكان سببا في انتصاره، ليجعلوه الوطن والأرض نفسها التي سينتصرون فيها على التنين كازا.

سبعة أشهر كاملة، منذ خروجه من سجن، لم يصنع لأمثال مسعود زغار أبدا، بل كان الأجدر أن يكون السجانون هم أنفسهم السجناء..

وبعد كل تلك الأيام التي ابتلعت كآبة الخريف، وبرد الشتاء وبداية الربيع، كان ذاك الشبح والصديق الخفي، يعمل بكل جهده لكي يسلم لكازا كل وثائقه، لم يرد أن يكتشف أحد مهما كان صديقا لمسعود، أو عدوا له، ما يضمره داخل ضميره العميق، والذي يحاول أن يسوغ له، عملا بطوليا يكفيه ويبعد عنه تأنيبه ورجمه.

كان يبحث عن مسوغات كثيرة لأعداء كازا، لا ينام حتى يفكر مطولا في طريق يبعده عن خصوم أقوياء، عن أعداء لو كشفوا سره ونواياه هي الأخرى لكان مصيره موت غامض وعقيم. وهم في قمة الهيجان يتكالبون على مساومته، يحاولون عض كل طرف حي منه، كان هو الشبح يرمي لهم شهوة الطمع إلى حيث جنيف، ويخبرهم أن القطعة والثروة الأكبر، ستكون

مخبأة سرا في سويسرا، وعندما يخرجها كازا بعد أن يعرف أنه قد أصبح آمنا، يمكننا هناك أن نستولي عليها، أقنعهم الشبح بذلك، فانصاعوا إليه، وسلم له جواز سفره، مع تهديد يبدو صغيرا ولكنه يخفي الشر بذاته وبكل حضوره.

ثم ابتعد ذاك الصديق الخفي عن الأنظار، وقد تنفس الصعداء، ظنا منه أن أمر موت كازا لم يعد بين يدي هؤلاء الحاقدين..ولم يعرف أحد سره أبدا.

وفي الثاني والعشرين من أفريل من عام 1986 سافر كازا رفقة عائلته إلى سويسرا، هناك التقى بجاكلين، التي عانت الكثير وهي تتخبط في انتظار لبراءة حقيقية، بين عفاريت فرنسا الحاقدة.

بعد لهفة اللقاء، جلست تتكلم معه وقد تمعنت في عينيه الغائرتين عميقا، كان هناك شيء ما تغير فيه، كالمرافئ المحطمة بعد العواصف الهوجاء والطاغية، كان التنين جريحا ناحية قلبه، ممحونا بمحنة لوثت مكان صدقه ولعنت أحاسيسه فاستوت كالقفار، خالية من الحياة، وتحمل في جوفها كل الكرم..

هل يمكن أن يكون مصير الأبطال والعمالقة خيبة قاسمة؟ هل يمكن أن تعطي للحرية دمك فيحولك الكافرون بها لخائن صعلوك؟

سحقا! البطولة سيعترف بها التاريخ فقط، فهو وحده الصادق في هذه الحياة وحروبها ومعاركها، والذي لن يبخس أحدا حقه مهما كان قدره ومكانته، لا ظالما ولا مظلوما..

حزنت الحزن العميق عليه، كان هذا قد أثر عليها كثيرا، وبعد كل ما عرفته، علمت جاكلين أنهم لن يتركوه أبدا، إلا وقد ثبتوا على قلب التنين كازا رماحهم المسمومة، تيقنت أن هذا لن يطول، نهاية حربهم تتشوق الأعداء والخصوم على حد السواء لإعلانها، ولكنها لن تتركه فريسة سهلة لخرابهم.

صمتت تفكر كأنها الخوف والحزن ذاته، وعرف هو ما تشعر به، الجزع على المحبوب لا رهان عليه، التفكير في طريقة للبقاء حيا هي غريزة في كل الكائنات مهما صغرت أو تطاولت وعلت، أمام الموت والحياة، ستكون هناك حرب دامية قوية أو ضعيفة، متصلة أو منفصلة عن رغباتنا وستبقى غريزة البقاء هي الغريزة الأقوى..

جاكلين هي الوحيدة في كل العالم من تعرف أعماق كازا، ربما لأنها تشبهه من نفس ثقل عالم المخابرات والجوسسة الشاسع والعملاق والذي لا يرحم أحدا.

هي...هو...كلاهما يملكان ذاتا ورغبات وحياة واحدة، توأم من الأرواح السيامي، لا ينفصلان إلا بقطع الأرواح.

-لقد تعبت يا جاكلين، المحنة كانت ابتلاء قسمني وكسرني، لقد وصلوا لأعماقي فلوثوها وما عدت أحس بشيء...أريد أن أنزوي في مكان بعيد، لا يعرفني فيه أحد ولا أعرف أي شخص فيه...أحتاج لذلك يا عزيزتي أحتاجه بشدة.

تنهد ومسح عرق جبينه من أثر مرضه، وتقلب مزاجه وحزنه، فأخذت جاكلين منديله واستنشقت رائحته، نظر إليها وابتسم وقد ساده الصمت، لم يعرف ما يقوله لها، كانت روحا تزهر على قلبه كالربيع، وتثمر ثمار حب غالية ومختلفة وحلوة.

قبلت منديله وقالت:

-أنت تعلم أنهم لن يتركوك حيا، بعد أن ينهشوك، وسوف يدمرون حتى عائلتك وأولادك وأحفادك، سيستأصلون كل شيء له علاقة بك، أنت تدرك ذلك وتعرفه جيدا..

ابتسم ابتسامة هازئة بإرادة شريرة طاغية وبعد صمت منه قال:

-أخاف عليك يا جاكلين، أخاف من نفوذهم أن تصل لعقر دارك فيقضمني كل عذاب وألم.

أمسكت يده وضغطت عليها برفق وحنو:

-دعنا نختفي يا كازا، نبحث عن مكان لا يعثر فيه أحد علينا، سأضعك داخل قلبي وأهرب بعيدا، لأنسى كل عالمي

الذي كنت فيه، أنا أعيش لأجلك منذ عرفتك، حاولت أن أرضى بكل بعدك وحياتك الشخصية بصبر لا يحتمل، ولكن الآن دعنا ننسى كل شيء ونرحل حيث لا يعرفنا أحد.

غضب كازا وخاطبها بنبرة فيها قلق وامتعاض:

-هل تريدين مني الهرب يا جاكلين؟

قبلت يده وقالت:

-سيقتلونك يا كازا وسيحدث هذا قريبا جدا، سيحاولون إرجاعك للجزائر، وعندما لا يستطيعون سيقتلونك في أي مكان كنت فيه، إنك مستهدف الآن أنت تدرك ذلك جيدا وتعرفه أكثر مني فلا تثق في أشخاص تظنهم إخوة لك.

تعال معي فكر في الأمر جيدا ستجده الحل الوحيد، الذي لن يكون له خيار ثان

تكلم بصوت رهيف يحاول أن يتأكد مما فهمه منها:

-وكيف سيتم ذلك يا عزيزتي؟ أنت تعرفين أنني أكره الهرب من المواجهة، وأنا الذي عشت حياتي كلها أقاتل بل أذهب لعدوي بقدمي يا جاكلين..

قاطعته قائلة:

-ومن قال أننا سنهرب يا كازا؟

سألها مستغربا وقد هز رأسه متسائلا:

-إذن؟

أجابته:

-الأموات لا يهربون....

المائدة الأخيرة...

الشرود هو علامة المحنة...وربما في أحيان أخرى يكون علامة القرار النهائي والذي لا بث فيه مرة أخرى.

كل لحظة بعد كل هذه الأحداث، كانت قد جردت كازا من الرغبة في الحياة نفسها، والأيادي الممدودة نحوه لتغرقه كانت كثيرة وقوية ودون رحمة، غير أن للحياة متناقضات تمس نواميس شرها وخيرها.

أخذ كازا كل عائلته منهكا، ليستقر في إحدى فنادقه بإسبانيا، أراد أن يسترد القليل والقليل فقط من حياته ويأخذها من كل هذا البؤس وهذه الأحزان والتي اقتربت به نحو التماس بالجحيم، إلى حيث الراحة والتي مهما كانت بسيطة، فإنها جنة وروضة من رياضها، خسر الكثير رغم أنه بطل باسل وشرس، بالرغم من ذلك كان إنسانا دافئا ورهيفا...قد أثرت عليه وصعبت على نفسه جدا ما تركته جراح الخونة...وما تركوه تركة من العذاب، لا زالوا يحاولون... إحراق ما بقي من فؤاده وصبره.

كالرماد الذي تذروه الرياح على بياض شيخ كبير، سيصبح مرآه أسودا وكظيما، لا يفرق بين بياضه ورماده ووفاره وصعلكته من شيء.

القوة كانت في عبقريته وإرادته، والضعف كان قد تسلل له بعد خصام مع أحداث بخسته حقه، وحاولت تشويه صورته واعتزازه وكبريائه وصدعت كل شيء بناه كزلزال.

في أعماقنا جميعا...هناك عزة للنفس، وكل أحد فينا أيضا تعيش فيه متنكرة بنقطة ضعف، وعندما تكشف وتنتهك تزداد كبرياؤنا وعزة أنفسنا أكثر وأكثر.

فالعطاء مهما كانت أشكاله وكيفما كانت أحداثه، فسيبقى الشيء الوحيد الذي إن منحناه بإخلاص سينتظر العرفان والشكر..سينتظر وهو صامت، أن يشيروا على صنائعنا بالامتنان....وتبقى الكبرياء هي الحطام تحت البحار، الذي قد أغرقه النكران وقد احترق بعده المرسى والمرفأ الأخير.

كازا رغم براءته واعتراف الشهود بما صنعت يداه للتاريخ، تغير وتبدل واعتزل كل شيء، هاجمه الشرود والهزال والضجر والقلق، واستقال من عطائه ليس لأنه البخيل، بل لأنه المصدوم من أشخاص يحملون الدم الجزائري، والذي قاتل لأجله كل تلك العفريتة فرنسا، وتحول لتنين لاتخمد نيرانه وثورته..ثم كافأوه بسجن وتخوين ونهب ومساومة ولربما بموت قريب.

أصبح حزينا يجلس على كرسيه المقابل للشارع الإسباني، ويسرح في هذه الدنيا التي بليت قلوب الأبطال بها، وفي

الخفاء... وبينما يكون وحيدا محتجبا عن أحبابه وعائلته، تدمع عيونه وجعا، تنطوي الأنفاس داخل صدره فتستوي سهاما تمزق قلبه، وسط تلك الذكريات التي كانت كلها في سبيل وطنه.

طال به الشرود، حتى عرف أن الآتي والذي مضى لن يغير أحداث ولعنة عذابه، ولكن الانعزال والصمت أصبح طريقه في هذه الدنيا، ذلك السبيل الأخير الذي كان يحرسه كلاب الشر فأحاطت به من كل صوب..نباحهم، الذي لا يتوقف فقد كانوا يساومون به راحته بل حياته كلها.

وفي ذات صباح شتوي، كانت ريحه عاصفة وكئيبة، وبينما كان يرتشف قهوته الخالية من السكر..شاردا في مكانه الحزين فجأة...

رن هاتفه. رد عليه ليسمع جملة واحدة من صديقه الخفي والشبح الذي قاتل القتال الأخير لأجله...لقد قرروا إنهاء التنين، والقضاء على أنفاسه في هذه الحياة، كان قد فعل كل شيء لأجل منعهم، وكل الذي استطاعه، كان مكالمة هاتفية عاجلة وأخيرة من مقهى بعيد عن العاصمة، رغم أنه يدرك جيدا أن مصير كازا كان التصفية دون نقاش..

-كازا سيزورك المعلم الصغير، سيطلب رجوعك للعمل في الجزائر لا ترجع يا صاحبي.. سي مسعود هذا ما أستطيع فعله.

وانتهت المكالمة، ووسط صمته انقبض قلبه، وأحس بشعور غريب، بشيء ما ... كمن يحس بقدوم سهام مسمومة وخفية دون أن يعرف صاحبها ولا مكانها.

استولى عليه الصمت، وفي ذلك اليوم بالذات أحس بالضيق الشديد من كابوس مر، يتكرر كل الوقت، إنها ذات الأحداث ونفس الألم والضغط.

أخذ هاتفه مرة أخرى، ورن على جاكلين، من غيرها هي، يطبطب على جرحه فيندمل؟ من غير جاكلين يصب على قلبها همهماته الحزينة؟ لا غير تلك العزيزة ينفتح سره ويعلن..وباح لها .. وبعض من تلك الكلمات وذاك البوح الحزين منه، جعلتها تحس أيضا بالحزن:

-عزيزتي إن حدث لي شيء، فافعلي كل ما يتوجب عليك للحفاظ على حياتك، لربما نهايتي قريبة..

كانت الوحيدة التي عرفت بمكالمة الشبح، والوحيدة أيضا الذي أخبرها بشعوره المخيف والذي لم يطلع عليه أحد غيرها.

طلب منها أن لا تثق بأحد، كما طلبت منه أن لا يثق إلا بها، والموت الذي يظنونه قادما، لربما كان هو الحل الذي تفهمه جاكلين وكازا فقط.

الحياة تجود وهي البخيلة، وإن جادت فندرة كرمها شيء نادر لا يمكن أن يمتلكه الجميع، وجاكلين بالنسبة لكازا هي تلك الندرة الجميلة في زمن شقي كما هو بالنسبة لها، جاء المساء وحضر المرسل الأخير، والشبح ككل مرة صادق وجعبته الأخيرة كانت السوء..

بعد قهوة طلبها هذا الصديق المزعوم، أخبره بعدها بما تنبأ به الشبح، نفس الجملة التي قالها على الهاتف، هي نفسها التي أعادها هذا القادم من وطن مسعود:

-المعلم الكبير يريد عودتك إلى الجزائر.

-لم؟

-يريد رجوعك للعمل معه مجددا.

انقبض قلبه وتمالك نفسه وتكلم بملامح غاضبة ولكن بصوت هادئ:

-لا... قل له يسلم عليك رشيد كازا، وقال لك أنه من سابع المستحيلات أن أعتبركم إخواني مجددا وأنني لن أعمل معكم ما دمت حيا على هذه الأرض...أخذتم ما تريدونه فاتركوني أعيش بسلام..

وأي سلام؟ فهم البوم الذين ينشرون النئيم..على أرض كازا البطل...

وبعد موعده القصير، كان قد انتهى من مقابلة عكرت مزاجه طيلة الليل، وأخمدت النوم من عينيه، وأحس بضيق لم يحسه في حياته أبدا.

حاول الخروج من ضيقه صباحا، واصطنع بعض المرح، في ذلك الوقت جمع كل عائلته حوله، لم ينقص أحد منهم، واختفت نظرة الحزن كأنه تحرر أخيرا من ضمور آماله، وبعد ثلاثة أيام من قدوم مرسل الموت، طلب من الجميع أن يجتمع للخروج للعشاء خارجا، كل أفراد العائلة دون أن ينقص منها حبيب لديه.. غير أن والدته نوارة كانت ضعيفة ولا تحتمل أي سهر في الخارج، احتضنها مسعود وقبّلها يدها..تلك الحبيبة التي طالما كانت مكانتها داخل سويداء قلبه، عميقا حيث عصارة حنانه ودفئه.

وعندما عرف أنها أصبحت ذات جسد مريض وهش، أعاد تقبيلها واحتضانها كأنه الوداع الذي لا رجعة فيه، وتركها مع ابنة أخيه صديقة، وقد أرسل لهما ذاك العشاء الذي لن يتكرر بعده من يده أبدا.

العادات المكررة أحيانا، تصبح نفسها الصورة المثالية لمعرفة نمط حياتنا وتخمين أسرارنا وأحداث حياتنا، العائلة التي اجتمعت بأمر من مسعود للعشاء الأخير، تركها وانزوى مع صديق له، بشكل مبهم وغريب.

طبق الكسكس المغربي، الذي أحب واعتاد تناوله في المطعم القريب من فندقه، كان قد تناول على نفس تلك المائدة عشاءه المسموم، وكانت المائدة الأخيرة لرشيد كازا.

الصديق نفسه، الذي دق الباب على ابنة أخ كازا، يريد منها الحضور لعمها الذي لا يستطيع رد نفس واحد إليه...كان هو نفسه من تناول معه العشاء..

الصورة التي تحاول أن تركبها، مع هذه الخديعة التي مارسها مجموعة لا نعرف من أي نافذة دخلت وتسللت لتنهي مشوار حياة مدهشة؟ فكيف لنا أن نركبها؟ كيف لنا؟

دخلت ابنة أخيه..صعقت!....منظره رهيب...العرق يتصبب منه غزيرا، وحين يتكلم يصدر حشرجة في صدره كأنه يستخرج الكلام من قاع عميق..صورته وهو .يمسك بطنه ويتعذب كأن السكاكين تمزقه...لا زالت تقتلها هي لحد الآن.

هرعت إليه والخوف وقلة الحيلة تتآكلها، كل ما كانت تسمعه منه، كان أنهم قتلوه...

-لقد قتلوني أبناء فرنسا يا يما...لقد قتلوني..تكلمت مفجوعة وقلبها يخفق ويخفق:

-عمي ما بك؟ كنت بخير منذ قليل؟

كلمها بثقل:

-أريد نادية...نادي عليها..

عجز عقلها عن فعل أي شيء، توترت وانهارت وراحت تفكر في منظره المروع، هاتفت زوجته نادية وأخبرتها بألمه الرهيب، فأخبرتها أن الطبيب سيحضر فورا...قطعت المكالمة وهرعت تجري لعمها الحبيب مسعود، وما رأته كان أسوأ .....كأنه غرق في عرقه، وصراخه من الألم تداخل مع روحه، ليصبح صراخا للإله، اللهم رحمتك وعفوك ورجاء إليك هو الأخير..

احتضنته ....وضعت رأسه عليها، وقد نطق بطل الثورة الشهادتين...ثقل لسانه أخيرا...هدأ عذابه شيئا فشيئا...وخف جسده وارتاح كازامن هذه الحياة المثقلة بالكدر...بالخونة والمرائين...والمنافقين...والذين كان مولاهم الشياطين وقد باعت أوطانها بالسلطة العفنة..

شخص بصره نحو السماء، رحل كازا ....الرجل الأسطورة الذي لن يتكرر إلا بإرادة الله وحده، كازا الذي اجتمعت داخله الرأفة والحنان والعبقرية والبطولة والإخلاص. كانت روحه روحا دافئة، تذيب جليد الأرواح..

كان رحيله يوم الاثنين في الواحد والعشرين من شهر نوفمبر من عام 1987، بالرغم من كل الظروف الغامضة التي لفت

حياة رشيد زغار وفي الأخير أحاطت بموته، سيبقى واضحا للتاريخ الإنساني وليس الجزائري فقط بأن الأبطال الحقيقيين سيقاتلون كل شيء...ستبقى البطولة مستمرة ومستمرة رغم كل الخونة لا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر...

ذكراك وحياتك يا مسعود زغار، نهايتها بداية لأبطال جدد ستبقى أنت مثالهم والدرس قد لقنته لهم.

الاحترام...لكل بطل على هذه الأرض، كان صادقا ووفيا ومناضلا للعدالة وللحرية ولكي تصبح الإنسانية الجنس الذي يحقق إرادة الحق الإلهي في تخليد القيم والأخلاق..

عندما يرحل الأبطال تتشقق الأرض، وتتعثر خطواتنا دونهم...وعندما ينتشر الظلم بين الإنسانية..ويطول عقاب الشيطان ...فهناك ...هناك ومن رحمها سينزل الصبي...الذي سيكون نبوءة الخلاص....

كلمة..هذا الرواية بذلت فيها جزءا من روحي وقد أحسست بكل مشاعرها، وأي تقصير مني مهما كانت جهته أو شخصه فأرجو منكم أن تلتمسوا لي العذر..فسأبقى خطاءة ما دمت إنسانة...

أحلام الأحمدي...

18من أغسطس 2019

المراجع الكتب والمواقع الإلكترونية:

-كتاب ديغول والجزائر نداء الحق للكاتب والمؤرخ السيد محمد عباس.

-كتاب Le procès ZEGAR للكاتب النقيب السابق السيد طيب بلولة.

-مسعود زغار موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

-مسعود زغار وإسهاماته في الثورة التحريرية مدونة الدكتور أحمد عظيمي.

-العربي بالخير كان وراء سجن زغار واتهامه بالعمالة للأمريكيين موقع النهار أون لاين.

-البطل المنسي مسعود زغار منتدى الجيش العربي ARAB ARMY FORUM.

شهادات شخصية موثقة:

-السيد وزير الحكومة الأسبق عبد السلام بالعيد.

-السيد وزير الداخلية السابق دحو ولد قابلية.

-السيد المجاهد الصغير جيلاني.

-السيد المحامي أحمد حميدي خوجة.

-السيد المحامي الطيب بلولة.

-السيد المجاهد خالد منصوري.

-السيد المجاهد منصور بوداود.

-السيد نواب نواني

-السيد سليمان هوفمان.

-السيد أمير محمد.

-السيدة الخامسة زغار(شقيقة البطل مسعود زغار)

-السيدة صديقة زغار(ابنة أخ البطل مسعود زغار)

-السيدة فاطمة الزهراء زغار (ابنة البطل مسعود زغار)

-السيد محمد الأمين زغار (ابن البطل مسعود زغار)

-السيد بوزيدي زغار(ابن أخ البطل مسعود زغار)

-وثائق وتحقيق للسيد الصحفي فاروق معزوزي عن تحقيقات قناة الشروق الجزائرية المكون من أربعة أجزاء.